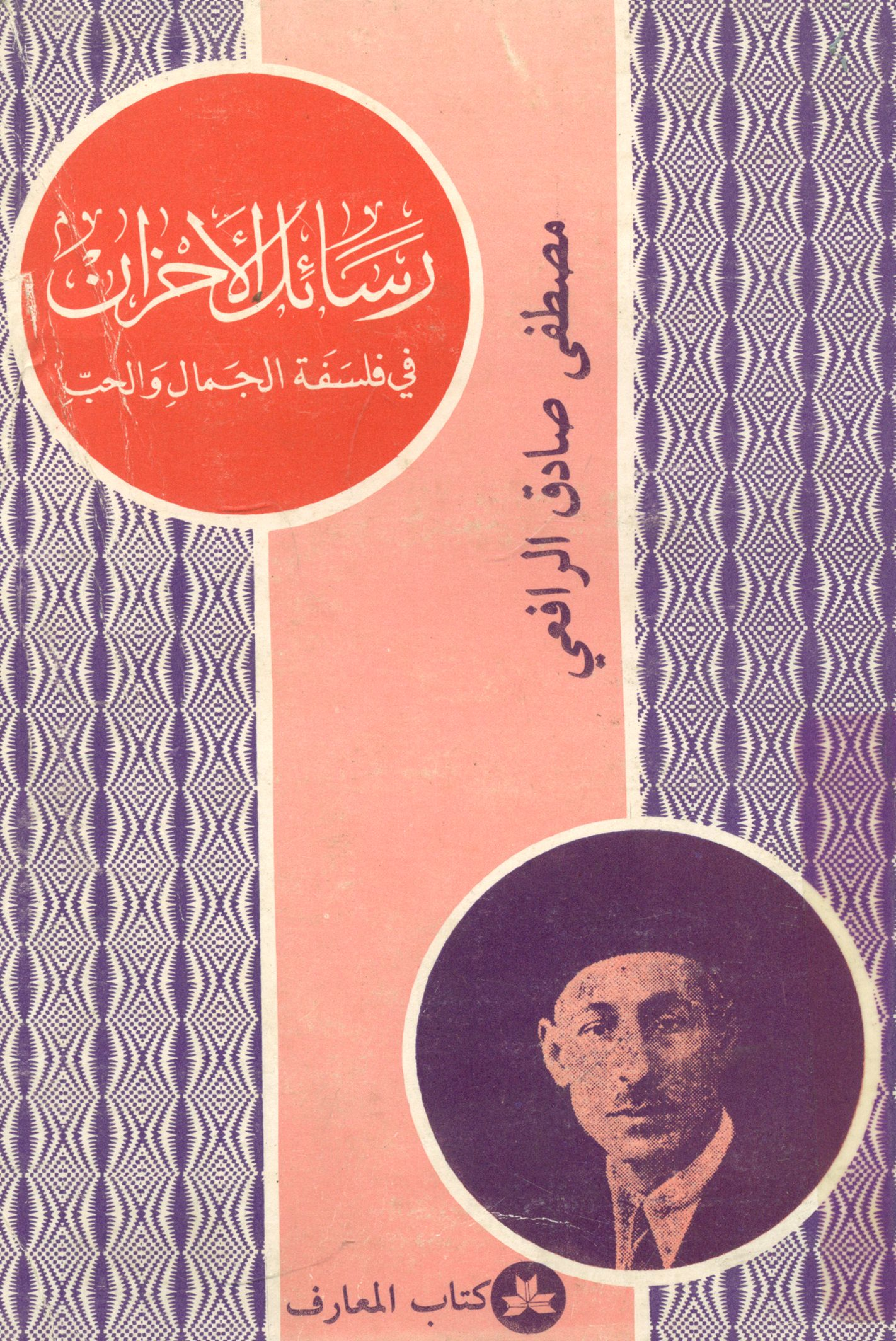

رسائل الأحزان
في فلسفة الجمال والحب
مصطفى صادق الرافعي
كتاب المعارف

كتاب المعارف يصدر عن دار المعارف



بقلم

مصطفى صادق الرافعي



منشورات دار المعارف للطباعة والنشر
سوسة/تونس

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف للطباعة والنشر
بسوسة ـ الجمهورية التونسية

العدد المسند من طرف الناشر 246 / 88
تم ايداعه بالمكتبة الوطنية في شهر ديسمبر 1988

* * *

« تدمك » : 0 ـ 42 ـ 712 ـ 9973 : ISBN

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقـدِّمة

كان لي صديقٌ خلَطْتُهُ بنفسي زمناً طويلاً وكنت أعرفه معرفة الرأي كأنه شيء في عقلي ، ومعرفةَ القلب كأنه شيء في دمي . ثم وَقَعَ فيما شاء الله من أمور دنيـاه حتى نسيني ، وطار على وجهه حتى غاب عن بصري ، والتفّت عليه مذاهبه فما يقع إليّ من ناحيته خَبَر ؛ وامتدّ بيني وبينه حَوْلٌ كامل خلا من شخصه وامتلأ من الفكر فيه ، كأنه العامُ الأول من تاريخ حفرة بين القبور العزيزة التي لا تُنسى .

وطلعت الشمس يومـاً في غيم يناير من سنة 1924 فأحسستُ قلبي من الذُّعر كالطائر يَنفُضُ ندى جناحيه في أشعتها ، ولم تكد ترتفع وتتلألأ حتى وافى البريد يحمل اليّ خطه وإذا فيه :

يا عزيزي الحبيب !

نقدتَني زمناً إن يكن في قلبك منه وخزةٌ ففي قلبي منه كحزّ السيف؛ لم أنسك نسيان الجحود وإن كنتُ لم أذكرك ذكرى الوفاء فأبعث إليك بخبر يترجم عني ، إذ كنتُ في سجن وأنا الساعةَ منطلق منـه . لا تجزع ولا تحسبنّه سجن الحكومة... إن هو إلا سجن عينين ذابلتين كان قلبي المسكين يتمرّغ في أشعة ألحاظهما كما يكون المقضيُّ عليه اذا أحاطت بـه السيوفُ وجعل بَريقها يتخاطف معاني الحياة من روحه قبل أن يخطف هذه الروح .

بل سجنُ فكري الذي ابتليتُ به وبخياله معاً فلا يزال واحد منهما يبالغ في إدراك الجمال والآخر يبالغ في تقديره حتى تكاد تطلعُ نفسي من نواحيها[1] لكثرة ما يسرفان عليها كما يريد الأطفال أن يملأوا القدحَ ليستفيض لا ليمتلىء، وليرسل الماء لا ليُمسكه؛ فلو أنهم صبُّوا فيه ملء بحر بأمواجه لجرى البحر من حافة قدح صغير.

ما أحسبني قطُّ رأيت امرأة جميلة كما هي في نفسها وتركتها كما هي في نفسها بل هناك نفسي. وآهٍ من نفسي. وما أسرع ما يمتزج في هذه النفس بعضُ الإنسانية المحبة ببعض الإنسانية المحبوبة فإذا أنا بشيء إلهي قد خرج لي من الإنسانيتين. هو هذا الشعر؛ هو هذا البلاء؛ هو هذا الحب.

فررت منك ومن سواك يا عزيزي مُصَيْف[2] الى امرأة كالتي جعلت آدم يفرُّ حتى من الجنة ومن الملائكة؛ وقد يكون اتصال رجل واحد بامرأة واحدة كافياً أحياناً لتكوين عالم كامل يسبح في فَلَكٍ وحده. عالمٍ مسحور، في فلك مسحور، لا يخضع إلا لجاذبية السحر، ولا يعرف إلا تهاويل السحر.

على انك لم تفقد مني في هذه السنة إلا بضعة كُتُب وكلاماً كنا نترسّل به وليس فيه إلا الحبر؛ فسأردُّ عليك من ذلك كُتُبَ سنوات وأعوضك برسائلي كلاماً فيه دمعُ العين ودمُ القلب. فقدتَني صديقاً يهزُّ يديك بتحيته والآن أعود اليك شاعراً يهز قلبك بأنينه. فقدتني شخصاً وسأرجع إليك كتاباً.

أما أنت فاكتب لي رَجْعَ كل رسالة تأتيك من قِبَلي واذكر لي موقعها من نفسك وكيف كان دبيبُها أو طيرانها عندك فإني راميك بأسهُم

---

(1) اذا امتلأ الشيء الى آخره قيل كاد يطلع من نواحيه.

(2) مصيف تصغير « مصطفى » على قاعدة الترخيم وكان الصديق يتحبب اليَّ به.

لا قاصرات عن قلبك تنزل دونه ولا زائدات تمر عليه وتتجاوزه ، بل مُسَدَّدات يقعن فيه .

وأرجو عافاك الله أن لا تتطلع في قلبي بنقد أو اعتراض أو تعقيب بل دعني وما أكتبه كما أكتبه فإن لكل شيء طرَفين وان طرَفي الجمال هما الحب والبغض ؛ ورسائلي هذه ستأتيك بالجمال من طرفيه فلقد والله أحببتُ حتى أبغضت ، ولقد والله يُضجِر العمل السامي اذا أصاب غير موضعه كما يُضجر العمل السافل اذا نزل في موضعه .

ومتى انقطع هذا المدَدُ المتلاحق من كتبي فاجمع الرسائل وقدم لها كلمة بقلمك ثم اطبعها وسمها « رسائل الأحزان » ؛ إنهـا كانت عواطف ثارت وقتاً ما ليحدُثَ منها تاريخ وسكنت بعد ذلك ليحدث منها شعر وكتابة .

فإن نجتمع بعدُ نظرنا فيها معاً وقرأتْها عيناك لقلبي ، وإن ارتاح الله لي برحمته[1] رفّت عليها روحي فأسمع صوتك في الغيب يرسل الى هذه الروح تحيةً من أنغام قلبها الميت .

صديقك

21 يناير سنة 1924 (. . . .

* * *

وجعلت رسائل الصديق تترادفُ اليَّ مُشْبَهَةً ضافية تقطر فيهـا نفسه كما ترسل السحـابة المنتشرة قطراتٍ انعقدت وانحلّت . ثم جعلت نفسه تنطوي على نأي حبيبته واشتدّ عليه أمرها ثم أسْهلَ وانقـاد ، واعتادهـا هاجرة فراتَ قليلاً[2] ثم كفَّ ؛ ومرّت الظبية تطفُو[3] ووهبهـا للبر

(1) كناية عن الموت .

(2) أي أبطأ ؛ وأسهل عاد سهلاً .

(3) تعدو لخفتها عدواً شديداً .

الواسع ... وانقلب عنها بعد أن ملأت نفسه كما يقول في بعض رسائله « بمثل البحر ملحاً ومرارة » ...

أما هذا الصديق فأعرفه أسلوباً من الكِبْر ولكن على نفسه، ومن الشذوذ ولكن في نفسه ، كأنما فُتحت أفواه عروقه جنيناً وملأتهـا الوراثة من دم مَلِك كان في أجداده . مستصعِبٌ شديدُ المِراس فهو أبداً في حياته كالملِك الذي حالت السيوف والأسنة والقوانين بينه وبين تاجـه فجعلت له حياتين يفصل الموت بينهما ؛ اجتمع من تاريخه إنسان بلغ الزمن تحت عينيه نيّفاً وأربعين سنـة ، فهو تاريخ أحزان قد استفاضت مسائله في فصول وأبواب جفّ القلم منها على نيّف وأربعين جزءاً كلماتها في حوادثها وان السطر منها ليُرْعَدُ في صحيفته من الغيظ وان الكلمة لتبكي بكاءً يُرى وان الحرف ليئن أنيناً يُسمع وان تاريخه كله لينتفض لأنه مصيبة مَلَكية مصورة في ملِك .

* * *

لقد سَبَق الكتاب وجفّ القلم الأزلي على علم الله فما أتينا الى هذه الدنيا إلا ليمثل كلٌ واحد منا فصلاً من معاني الشقاء الإنساني في تلك الثياب التي هي مِلْك لصاحب المسرح ، لا نخلعها ونلبسها بل يخلعنا بعضهـا ليلبسنا بعضها الآخر . فلسنا نبتدع ولكن يُلقى علينا وما نحن بمخترعين ولكننا نحتذي ، والرواية موضوعة تامة قبل ممثليها . وضعها ذلك القلم الأعلى الذي كتب مقادير كل شيء كان أو يكون حتى تُمحَى من صفحة الأرض هـذه الأحرف السوداء المتحركة والساكنة ....[1]

والمشكلة الإنسانيـة الكبرى ان كل إنسان يريد أن يكون بطل الرواية ومَثَلَها البِكْر حتى ذلك الشخص الذي جيء به لتنزل عليه اللعنة في

---

(1) كناية عند الناس .

سياقها . غير أن الرواية مفصّلة من قبل • ويأتي فصل اللعنة كما هو بأطرافه وحواشيه وأسبابه ونتائجه فينصبُّ على ممثله جملة واحدة على وجه لا يُحَس ولا يُرى ولا يُدفع كما يلبسه النوم فإذا هو يَقتل فيه قتلاً وإذا رجلٌ على أعين الناس باللعنة حالٌ وباللعنة مرتحل .

النوم والقَدَر والموت كالشيء الواحد أو ثلاثتها أجزاء لشيء واحـــد ؛ فالنوم غفلة تُخرِج الحي هنيهةً من الحياة وهو فيها على حالة أخرى، والموت غفلة تخرجه من الحياة كلهـا الى حالة أخرى ، والقدر منزلة بين المنزلتين يقع هيّناً على أهـــل السعادة بأسلوب النوم ويجيء لأهل الشقاء عنيفاً في أسلوب الموت ، ولن يجلب شيئاً أو يدفع عن نفسه شيئـاً من هذه الثلاثة إلا الذي لم يُخلق على الأرض . ذلك الذي يستطيع أن يفتح عينيه على الليل والنهار فلا ينـــام ، أو يحفظ نفسه على الصغر والكبر فلا يموت ، أو يضرب بيديه على مدار الفلَك فيُمسكه ما شاء أو يُرسله .

* * *

جئنا الى هذه الحياة غير مخيَّرين ونذهب غير مخيرين إن طوعاً وإن كرهاً؛ فمدَّ يدك بالرضا والمتابعة للأقدار أو انزعها إن شئت فإنك على الطاعة ما أنت على الكره وعلى الرضا مـــا أنت على الغضب ؛ ولن تعرف في مذاهب القدر اذا أنت أقبلتَ أو أدبرتَ أيّ وجهيك هو الوجه، فقد تكون مقبلاً والمنفعة من ورائك أو مدبراً والمنفعة أمامك والقدر مع ذلك يرمي بك في الجهتين أيّهما شاء .

وحريٌّ بمن يوقن انه لم يولد بذاته أن لا يشك في انه لم يولد لذاته ؛ وإنما هي الغـــاية المقدوره المتعينة فلا الخلق يتركونك لنفسك ولا الخالق تارك نفسك لك .

* * *

كذلك كان صديقي وما هو إلا إنسان من الناس ، وقد بلغ من العمر أربعة عقود ولكنه يحس منذ الصغر انه رجل هرم أو كما يقول بعض الفلاسفة [1] في تعليل ذكاء الأذكياء انهم يتذكرون ما يرونه ولا يتعلمونه لأن فيهم نفوساً خرجت من الدنيا كاملة ثم رجعت لتزداد كمالاً . وتلك خرافة ؛ ولكن من نقص هذا الانسان انه لا يستطيع التعبير عن أكبر الحقائق وأدقها إلا بأسلوب خرافي ...

قال لي هذا الصديق يوماً : اني بلغت أربعة عقود ولكنها فيما عانيتُ كأنما تضاعفت الى أربعين عقداً؛ وقد انتهيت من دهري الى السن التي ينقلب فيها الآدميُّ من وَفرة القوة ليثاً ويرجع من قوة الحكمة نبياً ويعود من تمام العقل إنساناً . غير أن هذه الأربعين بما تعاوَرَتْ عليّ قد هدم فيّ بعضُها بعضاً ، فإن أكن بناءً فذلك صَرْحٌ مُمَرَّد عمل فيه أربعون معولاً فما أبقت حجراً على حجر ؛ وإن أكن حومَةً فقد اعترك فيها للأقدار أربعون جيشاً فما تُؤرِّخ بنصر ولا هزيمة . يا ويلَتَا من هذه الدنيا . ان مصيبة كل رجل فيها حين يصير رجلاً أنه كان فيها طفلاً وما علم أنه كان طفلاً .

تلك حياة الصديق وكانت ليلاً طويلاً انبسط عليه فَنَنٌ من الظلام كأنه مُورِقٌ بالسحب والغمائم السوداء لا ينقشع بعضها عن بعض حتى كأن صباحه مات فيها أربعين سنة ثم انبعث آخراً من وجه فتاة أحبها فأشرق له من غرتها واستضاء عليه في وجهها وطلعت شمس حبه من خديها حمراء في لون الورد إذ امتزجت أشعتها بظلماته .

ويؤخذ من رسائله أن صاحبته كانت من قوة الجاذبية كأنها كوكب جذب منه كوكباً آخر ، ومن فتنة الحسن كأنها رسالة إلهية الى هذه الأرض بل إليه وحده في هذه الأرض . أدارتها هذه الحياة طويلاً وأدارتها ليجيء

---

(1) ينسب هذا الرأي لأفلاطون .

موضعه الى جانبها فكأنما أدارت منه فلكاً عاتياً لا يتزحزح إلا بعد أربعين سنة كاملة ...

رجل وامرأة كأنما كانا ذرتين متجاورتين في طينة الخلق الأزلية وخرجتا من يد الله معاً . هي بروعتها ودلالها وسحرها وهو بأحزانه وقوته وفلسفته، فكان منهما شيء الى شيء كما توضع زجاجة الحبر الأسود الى جانب يتيمة من الألماس أجيد نحتها وصقلها وتكسر على جوانبها شعاع الشمس فإذا هي من كل جهة ثغرٌ يتلألأ وإذا بالزجاجة ولو على المجاز « ألماس أسود » .

كانا في الحب جزءين من تاريخ واحـــد نُشر منه ما نُشر وطوى ما طواه ، على أنها كانت له فيما أرى كملَك الوحي للأنبياء ورأى في وجهها من النور والصفاء ما جعلهـــا بين عينيه وبين فلك المعاني السامية كمرآة المرصد السماوي ؛ فكل ما في رسائله من البيان والإشراق هو نفسها ، وكل ما فيها من ظلمات الحزن هو نفسه .

* * *

هدمت الأقدار هذا الصديق حتى انحط كل ما فيـــه من العزم والقوة فجاءت «هي» تبنيه وتشدُ منه وترمّم بعض نواحيه المتداعية وتقيمه بسحرها بناءً جديداً وتحفتْ به عنايتها زمناً حتى صَلُحَ على ذلك شيئاً فأيسرت روحه من فقرها الى الجمال والحب . ويقول صديقي: « انه ليس على الأرض من يشعر كيف ولدته أمه ولكني رأيت بنفسي كيف ولدت تلك الحبيبـة نفسي ؛ مرّت بيديها على أركاني المتهدمة وأعانتها الأقدار على اقامتي وبنائي، غير أن هذه الأقدار لم تدعها تبنيني إلا لتعود هي نفسهـا بعد ذلك فتهدمني مرةً أخرى » .

يصف حبيبته في هذه الرسائل كأنه مسحور بهـا فيجيء بكلام علوي مشرق كتسبيح الملائكة يخارجه أحياناً شيء يحار فيه الفهم لأن أحداً إنمـا

يرسل فكره وراء قلمه ، أمـــا هو فيرسل نفسه وراء فكره ويستمد قلمه منها . فمنزلته أن يكتب ثلاث كلمات ومنزلتنا أن نفهم كلمتين، والإنسان منا كاتب مفكر ؛ أما هو فقد زاد بصاحبته فكان كاتباً مفكراً وملهَماً .

ومما لا أكاد أفهمه انه يكتب كتابة محب أحيـاه الحب ومبغض قتله البغض ؛ فإني لأعلم ان كل شيء حبيبٌ ممن نحبه حتى البغض اذا كان يدل على حبه ولو دلالة خفية . بَيْدَ أن صاحبي يجفو جفاءً شديداً فلعلها أنـَفَة غلبت بها النفس على القلب فحولت الحب الى جفاء والجفاء الى غيظ والغيظ الى مقت وإنما المقتُ أول البغض وآخره .

* * *

يا صديقي المسكين لا يحزُنْكَ فإن آخر الحب آخرٌ لأشياء كثيرة ... وان من بين النساء نساءً أولهـُن كالشباب وآخرهن من أشياء كالهرم والضجر والضعف والموت .

ويا جمالَ النساء إن كان في الأشياء ما هو أحسن وأجمل فإن في الأشيـاء ما هو أنفع وأجدى، وقد تكون الجدوى والمنفعة من الجمال في بغضه أحياناً أكثر مما تكون في حبه .

ويا رحمةَ الله من فوق سبع سماواته لقد علـَّمتِنا بمـا نجده فيسرُّنا ، وما ننساه فلا يضرنا ، أن لا نيأس منكِ أبداً ولو كنا من الهمّ تحت سبع أراضيه .

مصطفى صادق الرافعي

الذكــرى

ما أشدَّ على قلبي المتألم أن لا يأخذ بصري من الناس إلا من يتدحرج في نفسي ليهويَ منها أو يتقلَّب في أجفاني[1] ليثـْقـُلَ على عينيَّ ؛ وأحاول أن أرى تلك الطلعة الفاتنة التي انطوى عليهـا القلب فانبثَّ نورها في حواشيه المظلمة ، وأن أملأ عيني من قمر هذا الشعاع الذي جعل السماء في جانب من ...ري ؛ فإذا مـا شئتُ من الوجوه إلا وجه الحبّ ، وإذا في مطلع البدر رُقعةٍ سوداء لا تبلغ مدَّ ذراع ويغشى الكون كله منها ما يغشى . فاللهمَّ أوسِع لقلبي سَعَةً[2] يلوذ بها .

العالَم لكل الناس . غير أن لكل إنسان عالَماً هو خالصةُ نفسه[3] ؛ وعلى أن هذه الدنيا مترامية الى كل جهة تتدلى عليهـا السماء ، فإن أراضيها الخمس بما رَحُبَتْ لا تقوم عندي بتلك الجدران الأربعة التي رأيت فيها من أحببتُها ؛ رأيت من هذه صورة قلبي فلا عَجَبَ أن تكون تلك الجدران صورة ضلوعي . وما أدري أذلك سِحرٌ أم تلبيسٌ أم تخييلٌ[4] ؛ أم هو الحب ؟

---

(1) كناية عن الثقل وفلان يتقلب في أجفان عيني أي ثقيل .

(2) أي اجعل له سعة لا تضيق به السلوة .

(3) ما يستخلصه لنفسه ممن يحبهم كأنهم من نفسه .

(4) ما يخيل للعقل ويحمل الامور ملتبسة .

إذا كنتَ شاعراً فأضْلَلْتَ نفسك فنشَدتها طويلاً وقلّبت عليها آفاق النفوس وأفلاك القلوب فإنك لن تصيبها إلا في نفس امرأة جميلة يجعلهـا مهندس الكون مركزاً للدائرة التي تنفسح بأقطار نفسك ذاهبةً بكل قُطر الى جهة من أمانيّ الحياة .

وإذا كنت حكيماً فسألت نفسك سؤال الفلاسفة : من أنا ؟ ووجدتَ في نفسك ذلك السرّ الخفيّ يقول عنك : من هو ؟ فإنـه لن يظهر لك معنى « أنا وهو » إلا اذا وضع الحب بينهما « هي » ...

وإذا كنت رجلاً من عامّة الأرض اندمجَ في جِلدة من الثّرى[1] فإن نفسك لن تُحِسّ جوهرها الإلهي إلا في نفس حبيبـةٍ وإن كانت من عامّة السماء .... فالحب يجعل النـاس أعلاهم وأسفلهم صاعدين أبداً من أسفل إلى أعلى .

* * *

إني أخطُّ في هذه الصفحات صورة من الزمن الفاني تصوّر خَطْفَة البرق التي خطرت في سمـاء العمر من ابتسامة ملتهبة كانت سيّالة بكهربائها ؛ وان في القلم لشيئاً إلهياً يدفع الموت والنسيان عن المعـاني التي تُكتب الى أجَل طويل ، كأن القلم ينتزعها من الإنسان الذي هو قطعة من الفناء ليُبعد الفناء عنها . هي « رسائل الأحزان » لا لأنها من الحزن جاءت ولكن لأنهـا الى الحزن انتهت ، ثم لأنها من لسانٍ كان سِلْماً يُتَرْجِمُ عن قلب كان حرْباً ، ثم لأن هذا التاريخ الغَزَلي كان ينبع كالحياة وكان كالحياة ماضياً الى قبر .

ليس بيني وبين الهوى شأنٌ ولا عداوة ولكنها تركت فيَّ ثلاثاً : قلبٌ أخلص لها وأوغرَتْه[2] عليها ، وبقايا آلام كأنها أشلاء[3] من فريسة تُشير

---

(1) كناية عن الرجل من العامة لا همّ له إلا هم العيش فلا يعلو عن الأرض .
(2) أحفظته وملأته حقداً .
(3) أجزاء .

الى تاريخ من الموت والألم والتمزيق ، وتركت مع هذين اسمَها الذي أحفظها فيه بجملتها ، وقد يُحسَمُ الداء[1] ولكن اسمه يبقى داءً ما بقي . فهذه الأسماء أكثرَ ما أنتَ واجدُها إما زيادة على أصحابها في الحب أو زيادة في البغض أو زيادة في الألم ، إذ هي عند أشخاصها تُطلق على أشخاصها ، ولكنها في الناس تنبه الى المعاني والحوادث والصفات المجسّمة التي تنتشر عليها النفس أو تنقبض ويتحرك لها الدم حباً أو بغضاً ورغبةً أو رهبة وعطفاً أو غِلظةً وأحياناً ... إهمالاً أو ازدراءً .

والحبيب قد يتحول الى كلمة أو قُبلة أو معنى من المعاني اذا أراد محبه أن ينقله معه الى أي مكان وهو باقٍ في مكانه ؛ الكلمة والقبلة والمعنى : هذه هي الجهات الثلاث التي تنفذ منها النفس الى أحبابها حين يُخفيهم الغَمام الفاصل بين الحياة والحياة اذا ابتعدوا أو هجروا ، أو الغمام الضارب بين الحياة والموت اذا لحقوا بالأبد . أما الجهة الرابعة فحين تُفتح للمحب يُلقي جسمه ويصعد بروحه ويختفي هو فيها . ولعمري اني لأريد أن أنساها ثلاث مرات لا مرة واحدة ولكنها في ذكراي كأنها ثلاث نساء: واحدةٌ في الرضا وثانية في الغضب وثالثة بين ذلك ؛ واحدة في كلمة وأخرى في قُبلة وثالثة في معنى من المعاني ....

* * *

السعادة تنصرف عنا في أكثر الأحيان ليكون تلهُّفنا عليها واحتياجنا لها سعادةً على وجه آخر و كأنما أوشكتْ[2] لنا من هذه الجهة وهي ذاهبة ؛ وإذا لم يكن الإنسان بأشدّ حاجةً إلى الطعام في وقت منه إلى الجوع في وقت غيره فكذلك هو في غذاء روحه وعواطفه، يفقد السعادة وقتاً كالجوع

---

(1) تنقطع مادته ويبرأ .

(2) أي قربت وعرضت .

ورقتاً كالصوم . وإن هذا لهو بعضُ أسرار الحكمة الإلهية في الشقاء الإنساني ولكنه كذلك من أسباب سوء الفهم في الانسان . ولقد ذهبت هي كالسعادة فلا أطمع أن يتنفّس قلبهـــا على قلبي أو يتنهد صدرها لصدري ، غير أن الشاعر الروحاني الذي يسعد بالحب إذا أرضى الحبُّ نفسه يكون أسعد بالهجر إذا أرضى نفسه كذلك ، ومع الحب عالَم كثيف يُنشِيء في كل يوم ألماً ، ومع الهجر عالَم مجرد يُحدث في كل يوم سلوة .

فلنترك المادة للمادة يتحطم البغض والغيظ فيها وتخلص الروح إلى الروح كنور في المشرق ينبعث إلى نور في المغرب ؛ وإذا ابتعد نجمٌ عن نجم استطاع كلاهما أن يَلْمَحَ للآخر لحةً متبسمة من بعيد ، يجعلها البعد شعاعاً صافياً وإن كانت في ذات نفسها شعلة من جحيم يتضرَّم .

إن هذه الذكرى حياة أبثّها مني في نسيانها فمـــا أهنأني أن يجيئني من نسيانها شيء تبثه هي في حياتي .

(....)

* * *

بعدما كنتَ وكنا (1) ؟

يا رياضَ الغزَالِ في سَرحِكَ الفَيْـ
ـنانِ يَهفُو بنا النحولُ غصونَا (2)

ما الذي يجعل الحبَّ سعيداً
غيرُ من غادرَ الحبَّ حزينا

ليتني في ثراكِ نبعٌ ويأتي
يتراءى الغزالُ في النبعِ حينا

ليتني في رُباكِ ظلٌّ ظليلٌ
ليلُوذَ الغزالُ بي ويلينا

* * *

بعد ما كنت يا غزالُ وكنا
ما الذي تحسَبُ الهوى أن يكونا ؟

* * *

---

(1) كل ما يأتي في هذه الرسائل من الشعر فهو منها .
(2) أصل الفينان الحسن الشعر الطويلُهُ واستعيرت هنا للشجر .

الرسالة الأولى

سأكتب هذه الكلمات المرتعشة، وسأبسطُ رِعشَدةَ قلبي في ألفاظها ومعانيها ؛ أكتبُ عن (...) ذلك الاسم الذي كان سنة كاملة من عمر هذا القلب ، على حين أن السعادة قد تكون لحظاتٍ من هذا العمر الذي لا يعدُّ بالسنين ولكن بالعواطف،فلا يسعني إلا أن أردَّ خواطري الى القلب لتنصبغ في الدم قبل أن تنصبغ في الحبر ثم تخرج الى الدنيا من هناك بين ما يَخفق وما يزفِر وما يئن . « من هناك » ! آه . من ترى في الناس يعرف معنى هذه الكلمة ويتَّسع فكره لهذا الظّرف المكاني[1] الذي أشير إليه ؟ ان العقل ليمدُّ أكنافه[2] على السموات فيسعها خيالاً كما ترى بعينيك في ماء الغدير شبكةَ السماء كلها محبوكةً من خيوط الضوء ، مفصَّلةً بعقد النجوم . ولكن هناك ؛ في القلب ؛ عند مُلتقى سر الحياة بسر مُحييها ؛ وهناك ؛ في القلب؛ عند النقطة التي يتقطّع فيها الطّرف[3] بينك وبين من تحب ، حين تريد الجميلة

(1) هناك من ظروف المكان .
(2) جوانبه .
(3) تقطع النظر أن ينظر في اغضاء وفتور كنظر المستحي .

ن تقول لك أولَ مرة أحبك ، ولا تقولها . هنك ، في القلب ، وعند موضع الهوى الذي ينشَعِب فيه خيطٌ من نظرك وخيط من نظرها فيلتبسان[1] فتكون منهما عقدة من أصعب وأشقد عقد الحياة . هناك؟ هذا معنى « هناك » .

* * *

سأكتب أشياء وأضمِر على أخرى لا أبوح بهـا ، وما دام لكل امرىء باطن لا يشرِكه فيه إلا الغيب وحده ففي كل إنسان تعرفه إنسانٌ لا تعرفه . وليست على المعاني والخواطر سِمات[2] تميز بعضها من بعض كبياض الأبيض وسواد الأسود ؛ فأنا وحدي أعرف سبب الزلزلة التي أصفُها ، والناس بعدُ كاولئك الخياليين القدماء الذين كانوا يقولون متى اهتزَّت أثقال الأرض[3] : إن إله المصارعة يَنبض قلبه الآن .... وأعرف سبب البركان المنفجر وكانت خُرافة الأقدمين عندما تتمرَّغ الأرض من الغيظ وتلعنهم بالفاظ من النار : أن إله الحِدَادة ينفخ في الكِير.... أنا وحدي أعرف ما أندمِجُ عليه[4] وما يُكِنّهُ قلبي المتألم الذي أصبح يضطرب اضطراب الورقة اليابسة في شجرتها نافرةً تتململ إن عَفَتْ عنها نَسمة لا تعفو النسمات كلها . فسآتيك

---

(1) يختلطان وينعقد أحدهما بالآخر .
(2) أي علامات جمع سمة .
(3) كناية عن الزلزلة .
(4) أنطوي عليه .

في رسائلي بالكلام الصحيح والكلام المريض ويتشعّب عليك من خبري أمور وأمور فلا تحاول أن تهتِكَ سرّ هذا القلب . وإذا صح أن الإنسان انطوى فيه العالَم الأكبر فقد صح أن السماء انطوت في قلب الإنسان . ما أبعدَكَ عن السماء ! انظر انظر فإن السماء تقول لك أيضاً انها معنى « هناك » .

* * *

لم تحيّرني المتناقضات ولا المتشابهات ولا ضِقتُ بأسباب الفكر فيها فإن ذلك الحب جعل فيَّ عقلين لا عقلاً واحداً ؛ أحدهما يُقِرُّني في هذه الدنيا والآخر ينقلني الى ثانية ؛ دنيا الناس جميعاً ودنيا امرأة واحدة ؛ دنيا السموات والأرض ودنيا قلبي .

في العقل الأول تنحلُّ كل المشكلات ، وفي الثاني تتعقَّد كل « البسائط » .... أحدهما قوي فلو اجتمعت عقول أعدائه في عاصفة واحدة لكان وحده عاصفة تَلِفُ بها لفًّا . والآخر ضعيف ضعيف تمرضه الابتسامة الواحدة مرضاً طويلاً . ذلك يكسر النفس كسراً ويرضُّها رَضّ الهشيم[1] ويَزَعُها من جَمَحاتِها ؛ وهذا ؟ كان الله له لا يشبه إلا الفضاء ما نُسب الى شيء ولا حسب في شيء .... الأول جبَّار يلد المحنة ويُميتها ، فهو عقل ما ينقطع له من الحيلة مَدَد ؛ والثاني خوَّار[2] يُمتحن بالنظرة الفاترة المتهالكة دلالاً فتحميل هذه

(1) الهشيم ما ييبس من دقيق النبات فكسره أهون الأشياء .
(2) ضعيف لا جلَد فيه .

المحنة وتلد في طريقها إليه فلا تصل حتى تكون محنتين .... وأنا بين هذين العقلين كأني عالَم عجيب حقائقه هي خرافاته ، وما مَثَلي إلا مَثَل النهر الطامي يتدفق الى البحر وقد فار فائرُهُ ، فلو سألتَ أحفَى مسألة[1] واستعنت بالفنون والأدوات جميعاً لتعرف ما هو ذلك الموضع المعيَّن الذي يصل بين منبعه ومصبّه لكان الجهل والعلم في ذلك سواء ؛ إذ الموضع في النهر هو كل موضع فيه على طول ما يجري ويمتد .

كذلك حيرةُ الحياة والحب يُجاب عنها بجواب واحد هو نفسه حيرة أخرى؛ ولكني أكتب الآن وقد تركت الحب وتركني . خرجت من المعركة فنشِبَت نفسي في معركة أخرى لا أدري أهي قائمة بين الحب والبغض أم بين الحب والحب ؟

أرأيتَ قطّ ذئباً قد افترس شاةً وجعل يُفَرْفِرُها[2] بأظافره وأنيابه وهي تنتفض يائسة هالكة ؟ إن تكن رأيته فذلك ذئب رحيم لو أنت كنت عاشقاً فرجعت لك من تهواها مما تحب الى ما تكره فرأيتَ البغض وما يصنع بقلبك . إنما الذئبُ نابٌ وظفرٌ وسَوْرَةُ وَحْش[3] يعتري أكيلَتَه فيسطو بها فيذهلها عن نفسها ثم لا يزيد بعد ذلك على طبيب جاهل في « عملية جراحية » .... أما البغض

---

(1) بغاية التدقيق .

(2) يمزقها وينفضها .

(3) السورة : الحدة والبطش .

فذئبُ الدم ؛ يُساوِرُكَ نَسوْرَةَ الحُمَّى فإذا هو شُعــلةٌ طائرةَ في عروقك لا تدع منك موضعاً إلا مسّته ولا تمس منك موضعـاً إلا نَقَعَتْ فيه[1] مثلَ ناب الأفعى من وهَيج الحب وسمّه وغيظه وألمه فما تدري في أي ناحية عذابك من هذا البغض ولا من أي الآلام هو ؟

ولن تظهر قدرة الجمال وما فيه من القوة الأزلية إلا اذا حملك على بغضه بعد أن يحملك على حبه فيقتلك مرتين كلّ مرة بسلاح وكل مرة على أسلوب وكل مرة بنوع من الألم.وذلك ضَرْبٌ من العذاب لا تملكه قوة في الأرض لا في الملوك ولا في الجبابرة ولكن تملكه بعض النساء الضعيفات ويُعذّبن به حتى الملوك والجبابرة .

مهما يبلغ الألم في عذاب إنسان فلن يجاوز حالة معينة ثم يغمى على المتالم ويستريح ولو دُقّت في عظامه المسامير ؛ كالماء مهما تُوقدْ عليه فلن يعدوَ درجة معروفة في غليانه ثم يثبت عندها ولو أضرمتَ عليه من النار التي وَقودُها الناس والحجارة . غير أن ألم الحب الشديد حين يُكرهك على بغضه نوع منفرد في كل آلام بني آدم كانفراد «ذئب الدم» في جميعْ ما خلق الله من المعاني الوحشية .

* * *

لم أرَ وصفاً كهذا أفظعَ ولا أبعثَ على الرُّعب لأنه إنمـا هو موصوفـه .... فسأخفف عليك فيما يلي هذه الرسالة ولا أذكر لك ثمت

---

(1) غرزت .

إلا مـــا يكون كوصف الجنة تزخرفت له ما بين خوافق السموات والأرض [1] ، ولكن دعني أقل لك اني أبغض من أحبهـا ، على أنك لو رأيتها لرأيت نفسها تلوحُ في وجهها ، جميلةً كجماله رقيقة كرقته محبوبة كحبه، ولكني مع ذلك أبغضها والله بغض الحرور لما يتلذّعُ [2] من أشعة الشمس ، وبغض العين الرّمداء لما يتلألأ من إشراق الضحى ؛ فـلا يداخلك في ذلك ريب ولا شك . وسيبقى سبب هـذا البغض من سر الحب الذي لا يُعرَف ، إن بعض الأسرار فيه ضربةُ العنق [3] فلا يباح به وبعضها يكون فيه ألم النفس الكبيرة فلا يباح به كذلك ؛ ولكن اعلم انها هي هي وأنه أنا هو . هي الكبرياء كلها لا تستعذرها من شيء فتُعذِر ولا تسمح بشيء إلا التوَتْ به [4] وأنا كبرياء الكبرياء ما خُلقتُ إلا مُحْكَمَ المعاقِد لا أتثلّم ولا أتحطم ، وتقلّبني في يدك ما تقلّب عَضلة الحديد فلا تراهـا من كل جهة إلا حديداً . هي يمين حلَف الدهر بهـا لَيكذبنّ كذبة بيضاء مغشاةً يغُرُّ بريقـها ويلتمع ماؤها لمَسِ السراب فتبصر فيها الروح معنى الرِّي لتلتهب منها بالظما القاتل يُفيضها على رمل ذهبي صبغته الشمس ... وأنا ؟ أنا كلمة قـد استوى ظاهرها وباطنها فإما أن تَصدق كلها وإمـا أن تكذب كلها .

---

(1) هذه الكلمة من حديث في صفة الجنة، والمراد ملء السموات والأرض .

(2) الحرور : الحران ، ويتلذع : يتضرم .

(3) كالأسرار السياسية مثلاً .

(4) التوت : غدرت ومنعت وأعذرت جملتك تعذرها .

كلمةٌ ليس فيها جزء محبوب وجزء مكروه فلا تحتمل أبداً معنيين . هي كالسيل تنحلُّ به السحُب ، وأنا قمة من الصخر الصلد تغسلها السيول ولا تشقّقها .

ثم هي من وراء ذلك كله فيها روحٍ بلبل يفرُّ بأغانيه من ظل إلى ظل في رياض الجمال، وأما أنا ففيَّ روح نسر يترامى بصفيره من جبل إلى جبل في قفار الحب . حاول العصفور الصغير الظريف أن يطوي النسر في جناحيه وهو لا يبلغ قصبةً في ريشة في جناح هذا النسر ، ولكنه .. آه ولكنه طواه في غير جناحيه .

* * *

أين العقل في الحب والبغض وبخاصةٍ إذا أفرطتْ عليك أسبابهما ؟ أمَا إن كل طريق لَينفذُ فيه الإنسان على بصيرة إلا هذين فإن أحدهما إذا احتواك لم يفلتكَ وأصبحتَ فيه كالذي يُطاف به الدنيا ويداه في قيد ، فمهما سوغ [1] من الحركة والاضطراب ومهما انفسحت له الآفاق فإن قدر ذراع من وثاق حريته الذي يشدُّ يديه هو قياسُ دنياه في طولها وعرضها ما بلغَتْ . فأنا على ما كنت أشعر من أن لي عقلين كنت أراني في ذلك الحب كأني بلا عقل، بل كأني مجنون من ناحيتين.... ويسرف عليَّ بغضها أحياناً فأتلهبُ عليها في زفرات كمعمعة الحريق [2]

(1) سوّغ : أبيح له .
(2) صوت الحريق .

حين ينطبق مِثل الفلك من جهنم على مدينة قائمة فيمضغ جدرانها مضغ الخبز اليابس . ثم يسرف عليَّ حبهـــا أحياناً فينحطُّ قلبي في مثل غَمَـرات الموت وسكَـراته يتطوّحُ من غمرة إلى غمرة . فأنا بين نِقمة تفجَـا وبين عافية تتحول وكأنه لا عمل لي إلا أن أصعد مئة درجة لأهبط مئة درجة ... أما ماذا يردُّ عليَّ الصعودُ والنزول فسل قصَـبَـة الزّئبق [1] ولا تسلني . إنـــه سيال يترجرج في القلب بين شيء مني وشيء منها ، وكانت عروقي كأنما ينصبُّ فيها أحياناً دمُ قتيل فيهجم بالموت (الأحمر) على حياتي يريد أن يَغولَـها .

إن تلك الفتاة لتُغضب الملائكة الذين لا يغضبون ، وقـد خُلق النساء لامتحان جنون الرجال وخلق الرجال لامتحان عقول النساء ، وخلقت هي وحدها لجلب الجنون لا لامتحانه ......

* * *

أراني سأبتدىء أيامي من آخرهـا فإني لا أقصهـا عليك وهي تولد بل وهي تموت بعد أن تركتني كالقنبلة فرغ الحب من حشوها وتريد أن تنفجر . لم أكتب لك إذ كان هواها ناشئاً يرتعُ ويلعب ، وإذ كان ينكسر انكسار فرخ الطائر حين يهدِلُ جناحيه [2] لتمسحه أمـــه بجناحيها . ولا كتبتُ إذ كان هواها الجدَّ أشدَّ الجِـد وإذ كان كالريح

---

(1) الترمومتر .

(2) يرخي جناحيه عند لقاء أمه .

المرسلة لا تقف ولا تنكسر إلا إذا تدلّى من السماء جدار يبلغ الأرض أو رُفع من الأرض حائط يبلغ السماء . ولا حين كان الهوى يركض بي ركض المجنون الذي يجري وكأنه يجري وراء عقله الذاهب على غير طريق ولا جادّة ولا علم [1] فلا عقله يقف له ولا هو يدرك عقله . ولكنني ساكتب وقد ركد الهوى ؛ وقد ماسَحَتْ قلبي حتى لآن من غضبه ؛ وقد اجتمع إليّ رأيي الذاهب . ولا تحسبن إني ساخطٌ لك قصة فيها اليوم والشهر والسنة وفيها الزمان والمكان وذلك السُّخف الذي يطوّلون ويعرّضون به إذ يستنهجون سبيلَ الحادثة من حيث تبتدىء إلى حيث تنحدر، فإن هذا مما يحسن في تاريخ صخرة تتدحرج أما أنا فساقدم اليك تاريخ لؤلؤة فريدة . هم يغطونك بقبة الليل يلمع في بعض جوانبها نور كوكب يظهر ويغيب . أما أنا فاضعك في ساعة من السَّحَر بين نسيمها وجمالها ورقتها وذبول الليل فيها ثم ينشقُّ لك الأبيضُ ذو الحواشي [2] .

* * *

ودعني أذكر البغض مرة أخرى قبل أن أنساه . إن اللين في القوة

---

(1) الجادة : الطريق المستوية ، والمراد الجري اعتسافاً .

(2) الصبح من قول القائل :

فلما شق أبيض ذو حواش   له حال وللظلماء حال

الرائعة أقوى من القوة نفسها لأنه يُظهر لك موضع الرحمة فيهـــا ، والتواضع في الجمال أحسن من الجمال لأنه ينفي الغرور عنه ؛ وكل شيء من القوة لا مكان فيه لشيء من الرحمة فهو مما وضع الله على الناس من قوانين الهلاك .

اجمع يا عزيزي إن استطعتَ سِرباً من الوحوش الضارية وصفّـفها لوناً إلى لون وصنفها شيئاً إلى شيء فإنك سترى في « جلودها » مكتبة ضخمة من هذه القوانين ... والوباء الذي يحلق الناس حلْـق الشّـعر فيتساقطون ألوفاً بجرّة من يد الموت. والزلزال الذي يرجُّـهم في غربال الأرض رجّ الحصى ينفيه من هنا وهنا . والمصائب التي تبسط العقوبة على النعم في سطوة كهدير الموجة العاتية حين تصارع العاصفة. والجميلة المغرورة التي تراها في أخلاقها من طِراز كدماغ السكّير الفـــارغ مزيناً بخيالات الخمر وَسوْرتها . كل تلك من « قوانين العقوبات » في العالم الذي خُلقْ متّهمين وقضاةً ولا مَن يحامي ...

وهذه التي سأقص عليك منها فلسفة الجمال والحب ، قوة من القوى لم يجعل الله القسوة فيها إلا لعلمه بها ؛ وما ابتساماتها الفاتنة إلا كسجن من البلور الصافي يختنق من يُحبس فيه وهو يتلألأ ... وكنت أراها أحياناً في جمالها وتأثير جمالها كأنها طاووس من طواويس الجنـة على كل ريشة فيه لون من ألوان النار .

نصيحتي لكل من أبغض مِن حب أن لا يحتفـــل بأن صاحبته

غاظته وأن يكبر نفسه عن أن يغيظ امرأة ؛ انه متى أرخى هذين الطرفين سقطت هي بعيداً عن قلبه فإنها معلّقة إلى قلبه في هذين الخيطين من نفسه .

ما من قفل بلا مفتاح وإلا فما هو بقفل ؛ والإهمال والازدراء وسمو النفس ثلاثة مفاتيح لقفل واحد هو قفل الغيظ .

* * *

الرسالة الثانية

لقد هوّلتَ عليّ في كتابك حتى أخرجتَني عن غيظي إلى غيظ آخر . تقول : « ويحكَ أراك أخرجتَ القمر من دارته وجئتَ به على أعين الناس ، وإلا فمن تلك التي لمستَ الفلك الأعلى حين لمست قلبها فكأنما اجترأتَ على القدَر فبها حلَفَ ليتيحنّك فتنة[1] تدعك وما يلوي منك شيء على شيء . ومن عساها تكون هذه التي ليس فيها إلا ما في الطاووس الميت من ريشه الجميل وهي مع ذلك رضاك[2] في الحب وفي البغض سواء » . ثم تقول : « ولعلها رفعتك إلى الشمس والقمر والنجوم لأنهم عشيرتها وأهلها ... فأنت تخاطبني في رسالتك الأولى وكأنك مرتفق[3] تحت جناح جبريل أو متكىء على بساط الريح فتصف ما لا عهد لنا به من كلام مفوّف كأنه غرَف الجنة تفويفها لبِنةٌ من ذهب وأخرى من فضة وتفويف كلامك جملة من

---

(1) ليقدرن لك فتنة .

(2) أي كافيتك .

(3) مستند الى مرفقه .

الحب وجملةٌ من البغض . وتنعت غراماً كاغا فصّل لك ثوبـــه من سحابة يمر فيها مِقراض البرق ففي كل ناحية منه فتقٌ من النـار » .
وتسألني : كيف أجعل نفسي كالميت فلا أكتب إليك إلا يوم تحـــين الوصية ... ولا أخبرك إلا وقد حلت عقدة القلبين وانفسخت أُلفةُ ما بينهما ؟

* * *

فيا ويحك ألا تعلم أن مِرْجـــل الباخرة حين ينقلب ماؤه لهباً أبيض فوق اللهب الأحمر ، ينفث نفثة المارد المدود بسلاسله في قاع الجحيم ، فيرمي بسهام من الذرِّ المحرق لو كان في جهنم رهجٌ يثور لما كان إلا دُقاق ترابها [1] . أم تُراك لم تـدرك من رسالتي أني أسع من بغض من أحببت فوق ما يملأني وإن هذا البغض وجه آخر من الحب كالجرح ظاهره له ألم وباطنه له ألم ، وما يمسه من ظاهره غير مـــا يَنكتُ فيه من باطنه. أم حسبت أني أزين لك صور الكلام وأزخرفها بألوان لا تُلتمسُ إلا لرونقها وانسجامها وحسن تآلفها فمنها الأسود لأنه أسود ومنها الأحمر لأنه أحمر ومنها لون قلبها لأنه لون قلبها ...؟ كلاّ ثم كلا فلا تتهدَّم عليَّ [2] بمثل ما كتبت واعلم أنه هو ما وصفتُ لك، وأن السحابة التي تراها تدمع حيناً لا يبعد أن تراها قد تلفّفت على

---

(1) الغبار الدقيق ، والرهج والغبار واحد .

(2) تتهجم .

صاعقتها ثم اجتمعت أرحاؤها وبواسقها[1] ثم ارتجت ثم ... تنفجر .

ولم أكتب إليك من قبل لأني أحب بلا غاية أباهيك بها ولا غرض أستعينك عليه ولا سر أستودعك إياه .. وهل رأيت الحب ينكشف إلا في واحدة من هذه الثلاث ، وهل انكشف قط إلا تتابعت عليه أمور وأمور وامتلأت منه الأنفس بالظنون والغفلات ؟

لقد أحببت فتاة كأنها قصيدة غزلية في ديوان شعر لا خطبة سياسية في حفلة ... فما ثَمَّ إلا معنى دقيق لطيف خلاَّب ساحر ؛ كل قولي له : أريد أن أفهمك ؛ وكل قوله لي : تأمل تفهم .

إن ألذَّ المعاني في هذا الجمال ما جعل ينبو في يديك كلما ألقيتَها عليه كيلا تستمكن منه ؛ ففي كل نَبوة يظهر لك منه جانب وأنت معه في ارتفاع وانخفاض أبداً ولا تزال تجري ويجري ، أما أنت فتشتدُّ جهداً في سبيله ، وأما هو ففي سبيل منبعه من الجمال الأعلى الذي أفاضه موجةً منه فكأنك ذاهب إلى الجنة حياً ، لا يمرُّ بك إلا في روح وريحان على طريق من لذة النفس لا تنتهي إذ هي من حيث لا نعرف إلى حيث لا نعرف، وتغدو كأنك في تلك اللذات الروحية طفل لا يكبر ما دام في عمر الحب . والحب الروحي الصحيح إنما هو كالطفولة لا تعرف وجه الفتى إلا شبيهاً بوجه الفتاة فليس فيه تذكير وتأنيث بل حالة متشابهة كاخضرار الشجر تبعث عليها الحياة حين لا يجيء الحسُّ فيها

---

(1) أعاليها وأسافلها .

إلا من جهة القلب . وما أرى الشجرة حين تخضرُّ إلا قد نبتت فيها كلمة من قدرة الله ذات حروف كثيرة ؛ ولا الزهرة حـــين تتعطر إلا قد لاح في جمالها معنى بديع من حكمة الكلمة الإلهية ، ولا الإنسان حين يعشق عشقاً صحيحاً كما تروِّحُ الشجرة وتنفطر[1] إلا قد صار قلبه كتاباً من تلك الحكمة النقية الجميلة المعطرة .

كذلك يكون هذا الحب عند الذين خُلقوا للشعر والحكمة اذا هم اتصلوا به فانه لا يهبط إليهم من السماء إلا ليملأ أوعيتهم ؛ وفي هؤلاء خاصة يكون الحب الإنساني هو السَّـرَب[2] الذي يتخذونه سبيلَهم الى غَوْرٍ ما[3] في الأمواج الألهية العظمى التي لا تنتهي أعماقهـــا فيغوصون ويخرجون وفي أيديهم أفلاذُ الحكمة ولآلئُها ؛ ومن شَفتَي المرأة الجميلتين يخرجون للناس كلامَ السموات .

أما الآخرون .... فتلك عقول كادَها بارِئُها[4] . عقول الناموس الأصغر العامل في حَرْث الأرض....[5] يضم أحدهم يديه على الجمال فيتلقَّفه فيجعل أصابعه أعواد القفَص لهذا الطائر ويقول له لَطالما التمستُك في جو السموات وطالمـــا كنتَ وكنتَ فههنا فاستقِرَّ .

(1) أي على هذا الأسلوب الطبيعي الذي لا صنعة فيه حين ينفطر الشجر ويخرج أوراقه.
(2) الطريق تحت الماء .
(3) الغور : العمق .
(4) أرادها بسوء .
(5) في القرآن الكريم « نساؤكم حرث لكم » وهو مجاز على التشبيه لا نظير لبلاغته يفهم معاني كثيرة فافهم ....

ولا يراه بعد قليل إلا كما اغترف غرفة من الموجة ؛ كانت حركة تفور فأصبحت سكوناً هامداً ، وكانت ملء البحر فصارت ملء الكف ، وكانت موجة فصارت .. آه فصارت بصقة ...

* * *

أقول لك أحببتها لا كهذا الحب الذي تراه وتسمع به في رواية تبتدىء وتنتهي في جزءين من رجل وامرأة ؛ ولا كالحب الذي يؤلفه الكتّاب والشعراء حين يجمعون عشرين معنى في كلمة أو يرسلون عشرين كلمة لمعنى .... ولا كالحب الذي يباع ويشرى فتأخذ منه بالدينار أكثر مما تأخذ بالدرهم .... ولا كالذي تجيئه وأنت من الإشراق والنور كزجاجة الخمر فيعيدك وأنت من الظلمة والسواد كزجاجة الحبر .... أحببتها ولا كالحب نفسه . منذا الذي قال : « من يهلك نفسه من أجلي يجدها » ؟ أظنه المسيح وقد كانت هي تتمثل بها كثيراً[1] ؛ ولكن هذه الكلمة بعد كلمة الحياة الأزلية التي تقول للناس حين يشكون فيها : موتوا لتعرفوا . كلمة الجمال الأعلى الذي يقول للشمس حين تصفر : اغربي لتصبحي بيضاء حية في النهار . كلمة الحب الصحيح الذي يقول للمبتلى به : تعذب لتعرف كيف تتخيل السعادة وتتمناها . كذلك تراني لا أحب إلا لثلاث : لأعرف

---

(1) فتاة هذه الرسائل سورية مسيحية تعرّف إليها الصديق في لبنان ثم قدمت الى مصر أشهراً فاتصل بها ثم ضرب الدهر بينهما وسافرت الى حيث لا يدري بعد أن سافرت من قلبه.

وأحس وأتخيَّل ؛ ولا أهلك بالحب إلا لثلاث : لأُوجَدَ في نفسي وأبقى في نفسي وأضمَّ نفساً الى نفسي .

* * *

أفهمت أيهـــا الصديق أم أزيدك ؟ ها أنا أهبط عليك من الفلك الذي تقول اني لمسته حين لمست قلبها . فاعلم اني لا أحب فيهـا شيئاً معيناً أستطيع أن أشير إليه بهذا أو هذه أو ذلك أو تلك ؛ حتى ولا « بهؤلاء » كلها .... إنما أحبها لأنهـا هي هي كما هي هي ، فإن في كل عاشق معنى مجهولاً لا يحده علم ولا تصفه معرفة ؛ وهو كالمصباح المنطفىء ينتظر من يُضيئه ليضيء فلا ينقصه إلا من فيه قِدْحَةَ النور[1] أو شرارة النار ، وفي كل امرأة جميلة واحدة من هذين ولكن الشان في تحرك القلب حتى يُدني مصباحه لتَعْلَقَ به الشعلة فيتّقد وما يحركه لذلك إلا القَدَر . وما أحكَمَ الناسَ إذ يقولون في بعض حوادث الحريق انهـــا « وقعت قضاءً وقدراً » ، فكل حريق القلوب لا يقع إلا هكذا ...

ومتى قَدَحَت الجميلة على قلب رجل أضاءته فيضيئها نوره بالوان من الحسن لا يراها ولا يدركها ولا يصدّق بها إلا صاحب هذا القلب . فلو ان الشمس دامت تصبُّ أشعتَهـا على طلعة هـذه المرأة ألف سنة

---

(١) الشعلة من النور .

تحياها جميلة شابّة لا تضعف ولا تَزِقّ سِنُّها[1] لما كشفت لأعين الناس شيئاً من تلك المعاني السحرية التي يكشفها ضوء قلب عاشقها لعينيه ؛ وما ضوء قلبه إلا منها فلن تكون فيه إلا ما أحبت أن تكون فيه .

بَيْدَ أن مصائب المحبين إنما تأتي من انقلاب المصباح فيستطير حريقاً لا ضوءاً وترى النار تَعْتَلِجُ في القلب وذُؤابتها تتلوّى في الرأس ويُصبح العاشق مُرَنَّحاً[2] بما اعتراه من الوَهن والضعف كأنه في جملته وفيما لبسه من الهمّ والسواد ما تراه من بقية بيت محروق .

* * *

رأيتها مرة في مرآتها وكانت قد وقفت إليها تسوّي خُصلَة من شعرها الأسود الفاحم المتدلي عناقيدَ عناقيدَ ولم يكن بها ذلك كما علمت بعدُ ؛ وإنما أرادت أن تطيل نظرها فيّ من حيث لا أستطيع أن أقول انها هي التي تنظر فإن ذلك الذي ينظر كان خيالها .... فلما انتصبت الى المرآة خُيِّل اليّ أني أرى ملكاً من الملائكة قد تمثّل في هيئتها وأقبل يمشي في سحابة قائمة من الضوء ؛ أو أن يد الله في لَمْح النظرة قد رسمت هذا الجمال على تلك الصحيفة يتموّج في ألوانه الزاهية؛

(1) كناية عن الهرم .

(2) متساقطاً من الضعف .

أو هي قد أرادت أن تبعث اليَّ بكتاب يحتويها كلها ولا يكون في يدي منه شيء فارتني مرآتها .

ألاَ فاعلم أن هذه التي في المرآة وهذه التي أمام المرآة وهذه التي هي في قلبي ؛ ثلاث في واحدة . ولو هممتُ أن أضع يدي عليها فرّت من يدي لتختبىء في مرآتها وتفرّ من المرآة لتختبىء في قلبي . فكانما كنت أعشق مخلوقة من مخلوقات الأحلام لا تُدرك بجميع أجزائها وإذا أُدركت بقيت وهماً لا تناله يد . وهي كالملائكة قادرة على التشكُّل إلا أنها تتشكل في الذهن فبينا تراها شخصاً جميلاً إذا هي فكرة جميلة تتعطف عليها حواشي النفس ، وبذلك تستطيع أن تشعيرني انها فيّ وإن كان بيننا من الهجر بُعْدُ المشرقين ، وأن تنزل بالسلام على قلبي وإن كانت هي نفسها الحرب ؛ وأن تجعلني أحبها وإن كان بغضها ياكل من جوانحي .

تَراها مع أيّ أحوالها كالسعادة تَخَيُّلُها هو هي ..

ولولا ذلك ما احتملتُ غضبها وإن لها لَغَضباً تجمحُ فيه فتملأ جوَّ النفس بمثل الغُبار الذي يُثيره الَجواد الكريم اذا انْجَرَدَ للسَّبْق وترك أعناق الخيل تتقطّع عليه ولا تلحقه فتراه يغضب ويتميز ويحاول أن يسبق جلده وأن يخطف أرض الله كلّها في حوافره. تغضب على أسلوب من هذا الطراز أو من طراز البحر الزاخر حين يَتَقَلَّع في أيدي الأعاصير أو من طراز الأرض حين تَتَخَلّع في أيدي

الزلازل . وأحياناً من الطراز الرقيق حين تتجاهل في غضبها محبّا هي بعض تاريخه فتدعه يشعر أن فيه مكاناً مجهولاً وأن من قلبه قطعةً منزوعة . ومرة من الطراز العسير حين تلوي وتُعَقّد حتى تتركني وكاني ما أجد في الدنيا مكاناً ليست فيه ولا مكاناً هي فيه ..

وكل هذه الأساليب شروحٌ وتفاسير ؛ أما المعنى الذي تدور عليه فهو هذا : داء الحب نقداً والدواء عند السين وسوف .... عند هذه الجميلة التي هي أكذبُ ما في الصدق عند محبها وأصدقُ ما في الكذب على محبها .

* * *

الرسالة الثالثة

« حيلة مرآتها »

حسناءُ ، خالقُها أَتَمَّ جمالَها
سألتْه معجِزَةَ الهوى فأتالها

لمـــا حباها اللهُ جلَّ جلالُهُ
بالحسن منفرداً أجلَّ جلالَهـــا

تُضْني المحبَّ كأنما أجفانُهـــا
ألقت عليـــه فُتورَها ومَلالَها

هيفاءُ قد حسب النسيمُ قَوامَها
غُصُناً فإن خطر النسيمُ أمالَها

سيَّالةُ الأعطاف أين ترنَّحَتْ
تُطلِقْ لكَهرَبة الهوى سيَّالَها

طلبوا لها شَبَهاً يُضيء ضياءَها
لهوى النواظر أو يُدِلُّ دلالَها

أمــا السما فَتجلَّتْ عليهم بدرَها
والأرضُ قد عرضت لذاك غزالها ...

لكنها نظرت فاخجلت الظّبا
وتلَفَّتتْ للبدر فاستَحْيى لها

هم يطلبون مِثالَها فليرْقُبوا
مِرآتَها يجدوا هناك مِثالَهـا

* * *

مرآةُ فاتنــةِ النفوس وصفحةٌ
تتلو بهــا أرواحُنا آمالَهـا

لمـا عجزنا أن نفصِّلَ وصفَها
جمعتْ لنـا مرآتُهـا إجمالَها

واهـاً لمرآة البخيلة لو رَثَتْ
يوماً فاهدتْ في الجفاءِ خيالَها

تتلألأُ الضَّحِكاتُ في جَنَباتِها
فتخالُ ضوءَ الشمس هزَّ صِقالَها[1]

---

(1) صقال المرآة ماؤها ورونقها .

من ثغرها ، من منبع النور الذي
نَبَعَتْ به ضَحِكاتُها فاسالَها

تَتَنقَّلُ اللحظاتُ في أنحائها
قَتَّالُها مُستَتْبِعٌ قَتّالَها

جرحتْ بها وبهُدْبِها وكذا الهوى
أبداً يَعُدُّ من السيوف ظِلالَها

حوريَّةٌ شهدت لها جنَّاتُها
وجمالُ عينيها شهادتُها لَها

وكأنما المرآةُ من أُفُق السما
وكأنها مَلَك يلوح خِلالَها

* * *

وقفت لها يوماً فألقتْ نظرةً
حيرى تُشابه وعدَها ومِطالَها

نظرتْ بلحظ نافذ لو أنهُ
لقي الإرادة نفسَها لاغتالَها

نظَراتِ حواءَ التي أوهتْ بها
عَزَماتِ آدمَ يوم ضلَّ ضلالَها

فرأت على المرآة وجهاً . ظنّهُ
ملَكَ الجمالَ يحاولُ استقبالَها

راع المليحةَ منه فرطُ جماله
أم راعها أن لا يكون جمالها ؟

فرَنَتْ بنظرتها إليه تُطيلها
ورنا بنظرته لها فاطالها ....

لحظان لو رجَفَا عليك تراجفَتْ
كرَةُ الفؤاد فزلْزِلَتْ زِلزالَها

* * *

نظرت لها حسناً إذا ما احتلّ في
دوَل النُّهى سلب النهى استقلالَها

ورأتْ لسحر جفونها ما راعها
ورأتْ لفتك لحاظها ما هالَها

فتذكرت شمسُ الجمال متيّماً
تركته من فرط النحول « هلالَها »

ما زال يشكو « الصدّ » حتى بغّضت
في نفسه « صاد » الحروف « ودالَها »

ورأت صفـــا المرآة يشبه قلبَـه

مهما تُحمّلْه يكن حمّالَهـــا

فتنهّدتْ أسفاً عليـــه وأنشأت

عَبَراتُ رحمتهـا تجولُ مَجالَها

جزعتْ له يُعنى العنايةَ كلَّها

وتَرُيه كلَّ ثوابـــه إهمـــالَها

حالان خيرُهما وشرُّهما سُوًى

ومن المنـــافع مـــا يجرُّ وَبالَها

جُهدُ المقامر أن يحاول حيلةً

ولَكَمْ أضرّتْ حيلةٌ محتـــالَها

والعمر آمالٌ ومـــا جَلَبَ الشقا

إلا ابتغـاءُ الطـــامعينَ مُحالَها

إن الذي أعطى النفوسَ عقولَها

جعل القناعـــةَ للنفوس عِقالَها

* * *

جرَت الخواطر بالمليحة لحظـــةً

شغلت بأحزان المتيَّم بالَهـــا

فبـــدا عليها بعضُ ما قـد ناله

وبـدا عَلى المرآة مـــا قـد نالَـها

ورأت لها وجهاً تغشّاه الأسى

والحسنُ قـد منع الأسى أمثالَـها

كادت تقول « رضيتُ عنه » فامسكت

ومضتْ عَلى عجل لتُخفيَ حالَـها

أوّاه لو مرآتُها نجحت .... ولو

فَمُها تبسّم عند ذاك « وقالَـها »

* * *

الرسالة الرابعة

ما أحلاه كلاماً وأنداه على كبدي هذا الذي تقوله في كتابك : « لو كانت تلك الفتاة الساحرة شجرة يابسة قد تحاتّت[1] وكان النساء كلهن شجراً أخضر لأورقت عليك وأثمرت ، فإن فيك وفيها القوةَ والسبب ، ومن مثل هذه القوة وهذا السبب تخرج معجزات الحب » . آه لو صح ذلك . إن بعض الرجال يكون في صفاته كذباً على الرجال فهذه والله كذبٌ على النساء ولو جاز لقلت إنها وُلدت خطأً في هذا الجلد ؛ بل ما وضعها الله فيه إلا لعلمه بها وليجعل منها علماً لمن شاء أن يَدْرُس بروح الرجل المحب أو المبغض جمالاً شاذاً في روح امرأة تحتمل الحب والبغض معاً . لم يكن فيَّ وفيها القوةُ والسبب بل القوةُ والقوة ، وما كنا إلا كدولتين متحالفتين تمنع قوتها أن تعتديَ واحدة على واحدة ، ويَشقُّ ذلك عليها فتعبران عن لفظ القوة بلفظ أرقّ وأجمل وهو المحالفة ؛ ثم يرقّ هذا اللفظ فتخرج منه الصداقة ، ثم ترقّ هذه فيجيء منها الحب . ولا حبَّ هناك ولا

---

(1) تساقطت أوراقها من اليبس أو عارض ما .

صداقةَ ولا مخالفةَ بل هي أساليب سياسية في لغة القوة حين تخشى وحين تطمع .

لقد أذكرتني بالشجرة اليابسة يوماً جميلاً وكلاماً أجمل منه فأنا باعث به إليك وإن كان قد بَعُدَ به العهد إذ وقع أول معرفتي بها في قرية ... بلبنان. هناك زهر أصفر يلوح للعين كوجوه الدنانير يسمونه « الوزّال » وهو طيّب الرائحة ولكنه خبيث النَّبْتةِ لا يكون إلا في مثل الرماح من الشوك . وكان لها ولعٌ شديد بهذا الزهر لِطَبع من أشواكها وأشواكه فقد نلتُ من كليهما .... وسنحتْ لها على زهرة منه فَراشة زاهية مصبوغة فوثبت إليها واشتدت وراءها وكانت الفراشة تفوتها وتستطردُ لها وتعبث بها عبثاً بين أن تلوح وتختبىء . ثم رجعت « الفراشة الكبيرة » بعدما انقطعت وقد تزاحمت الأنفاس على صدرها وجعل قلبها يغيظني بدقّاته غيظاً شديداً إذ كان يخفق من البُهر والإعياء لا من شيء آخر .... وتساقطتْ تحت شجرة من التين فلما أراحتْ وثابتْ إليها نفسها قالت : فراشةٌ لا تبلغ ُعقدة إصبع من ثوبي وتعنّيني هذا العناء كله ثم أرتدُّ عنها خائبة ؟ قلت: بل خائبة خيبةَ المفلس يعدو يومه وراء «الدينار الطائر» فلا يدركه . فاجتذبتها إليَّ كلمة « الدينار الطائر » ومن خصائصها أنها لا ُتعجب بشيء إعجابها بدقة التعبير الشعري ـ وسأستوفي لك هذا في رسالة أخرى . إنها تريد أن تجمع إلى صفاء وجهها وإشراق خدّيها وخلابتها وسحرها ، صفاءَ اللفظ وإشراقَ المعنى وحسنَ المعرِض ، وجمال العبارة وهذا

هو الحب عندها ، تحبك كما تحب كلمةً تكتبها أو معنى تتخيله فإذا سئمتك لم تكن عندها إلا الثالثة ... إلا صحيفة تمزّقها ....

* * *

ورفعتْ رأسها الى الخيمة الخضراء ثم قالت : هذه شجرة تين. قلتُ : وماذا في أنها شجرة تين؟ قالت: ألا تعرف تينة الإنجيل؟ قلت: وان في الانجيل لتينةً ليست كغيرها ؟ قالت: كان من خَبَرها[1] أن المسيح مرَّ في جماعته وهو جائع فرآها من بعيد فَينانةً خضراء تهتزّ كانها تدعوه ولم يكن أوّان هذه الفاكهة ؛ فَعدَلَ إليها لعله يجد فيها شيئاً يَطعمهُ فلم يجد غير ورقها الذي لا يؤكل فقال لها : خسئتِ لا ياكلنّ منك أحدٌ ثمراً بعد اليوم . وانحدروا الى أورشليم ؛ ولما أصبحوا انقلبوا فمرّوا بشجرة التين فإذا هي خاويةٌ قد نزعت ثوبَ نَضرتها والتفّت في كَفَن من اليبس وماتت واقفة . فرماها بطرس بعينيه وقال: انظر يا سيد ! إن هذه التينة التي مَرَدَتْ عليك فلعنتها قد ماتت وثراها حيٌ بعدُ .

قلت : هذه لَعمري هي المعجزة ، تموت الشجرة وثراها حيٌ وتجري اللعنة في أعوادها فتتشرّب ماءها وتتركها يَبَساً لا تصلح إلا للحريق ، وتنقلب الشجرة الخضراء في ليلة من خشب الله الى خشب الناس . ولكن ما ذنبُ الشجرة المسكينة إذا لم يكن موعدَ فاكهتها

---

(1) هذه القطعة من انجيل مرقس وقد ترجمناها من عربيتهم .... الى عربيتنا .

ويريدها المسيح على غير طبيعتها ؟ قالت : فإن الذنب في اخضرارها كانها ذاتُ ثمر. قلت: أوليس للثمر وقتٌ قد مضى، وهل الشجرة إلا شجرة ؟ أم تحسبينها تُدير الشمس وتقلب الفصول لتعقيد الماء ثمراً حلواً ؟ ألا إن الشمس تدور ثم يحين الفصل ثم ينعقد الماء ثم يحلو التين فينضج فيؤكل . قالت إنك لتجيء بالدواهي فماذا تقول أنت ؟

أقول اعلمي أن فيلسوفاً يونانياً كان قبل المسيح[1] وكان يرى ان تلك الشجرة ومثلها مما سَفَل وعلا من قَدم الكون إلى ذؤابته إنما هي الإرادة البشرية بعينها إلا أنها لم تكتمل لعلة ما ، فكأن العالم عند هذا الفيلسوف إنسانٌ غيرُ سَوِيٍّ ذهب طوله في عرضه فلم يُعرف شيءٌ من شيء ، وكأن الإنسان هو الذي نما وتم . فالشجرة إن لم تكن من الإرادة كما يقول هذا الفيلسوف فهي من الحياة وقد التقى منها ومن المسيح انسانٌ حي وشيء حي ، والتقيا على خلاف انقلبت فيـــه الى حياة ذات إرادة ، وإرادة ذات كبرياء ، وكبرياء في رعونة يختال بها جِذْعٌ خشبي غائر في الأرض على جذع روحاني باسق في السماء ، وتتيه عشبةُ الطين على زهرة الفلك الأعلى . والكبرياء كانت من شرها أولَ ما تمرَّد به الشيطانُ على الله[2] وأولَ ما لعن الله به الشيطان وحسبها من الشر أنها ذهبت بجميع حَسنات شيخ الملائكة (كان[3] ....)

---

(1) هو سيدوكليس كان قبل المسيح بأربعة قرون .
(2) حين تكبر فأبى السجود لآدم .
(3) أي سابقاً .

فهوى بعدها من لعنة الله في أعماق لا تنتهي ولا يزال فيها طائراً إلى أسفل .... وما برحت هذه الكبرياء ثقيلة على الأرواح الصافية الكريمة ولو كانت مما تحيق له ، ولو كانت من شجرة تحييها الشمس ويقوم على حفظها ناموس الكون . والمسيح لم يفر إلى ظلها من حر بل إلى ثمرها من جوع ؛ فلما أتاها بجوعه تلقته بزهوها . قال لها بلسان قلبه العظيم: هاتاذا ! فقالت له: وهاتاذه ، أخرى غير التي تريد . ظل جائعاً وظلت خضراء تتموج لعينيه شبعاً ورياً ما تستحيي ولا تتواضع بجفاف ورقة منها تسقط عذراً عند قدميه . كانت في غير حالته القائمة بروحه وكان في غير حالتها القائمة بروحها ، فكل ذنبها في روحه هو وفي حالته هو وفي حسه هو ، فاشمأز منها فيبست ولعنها فماتت ورآها ظلاماً فاطفأ سنتها الى الأبد . هكذا يفعل الروح الأقوى بالروح الأضعف حين يختلفان والمتكبر دائماً هو الأضعف وإن ظهر أنه الأقوى ؛ فلو صدمته روح عاتية بما فيها من بغضه وازدرائه لوقعت منه موقع أظلاف الفيل من النملة الضعيفة ؛ فإن فوق كبرياء المخلوق ناموساً ثابتاً من كبرياء الخالق ما لجا إليه مكسور القلب بكاسر قلبه إلا وضعه والله ثَمَّتَ موضع حبة القمح تحت حجر الطاحون الضخم لا يبقي ولا يذر .

* * *

وكنت أتكلم وكأني مرتفق تحت جناح جبريل كما قلت وإن

الكلام لينفذ الى دمها مع أنفاسها فما أتيتُ على آخره حتى رأيتها قد اصفرّت وارتاعت وقالت : ويلي منك ، فهل أنت مسيح جديد ؟ إني لأسمع ألفاظك هذه وكاني أسمعها من يوم بعيد لم يات بعد ولكنه آتٍ لأنه يتكلم ويقول بكلامه أنا موجود وإن كنت بعيداً عنكِ . فاردت أن أخفّف عنها فرفعتُ طرفي الى خيمتنا وقلت : اسمعي يا شجرة التين .... فانفجرت ضاحكة وقالت : كم قلت لي أنتِ دُوَيهيَةَ وزعمتَ ان هذا يسمونه تصغير التعظيم فانت دُوَيْهِتان . فضحكتُ وقلت : أولستِ معي ....

لقد حلّ ذلك اليوم الذي سمعتُه يتكلم في الغيب ، وآه من تلك الدويهية ومن كبريائها وفلسفتها . آه من فتاة تقول لك فيما تقول : ان أمي ولدتْ نفسي ونفسي هي ولدتني فلا تَرْجُ أن تصيب فيَّ طباعَ أنثى وإلا ضَلَّ ضلالك أيها الحبيب ... قلتُ : فماذا بقي من معنى « أيها الحبيب » إذن ؟

فضحكت من عبوسها – وهي حين تتفلسف تُظَلِّلها سُحُبٌ من الفكر فتراها قد غامت فيها ولا يبقى لك أمل إلا في وميض من ابتسامها يلمع أحياناً كما تنظر للشمس من فَتْق في السحاب يتمزّق ثم يُسرع فيلتئم – أتدري ماذا كان جوابها؟ قالت : خُلِقنا لهذا الحب من قبل يومنا ؛ ولعلّ يومنا اذا جاء كان يوم بغض منك أو مني . قلت: فمعنى « أيها الحبيب » في فلسفتكِ « أيها البغيض » ...؟ قالت:

كلا كلا..لا أدري، ولكني أتكلم بلغة النطق، وفي ناموس الفهم الإنساني لغةٌ غيرها وفي ناموس الأقدار لغةٌ غير اللغتين . فانك لتراني ولكني أرى فيَّ أخرى والأُخرى ترى فيهـــا ثالثة . هذا أشعر به ولا أدري كيف أصِفـُه فإن عبَّـرتُ عنه بلغة النطق انقلب كَلامي عن جهته فصار من كلام الموَسوسين والمـَمْـرورين والمجانين . أنا أُحسن الكلامَ مع السماء وأنت تحسن الفهم عن السماء ، فحاجتي إليك هي أن تتكلم في روحي وحاجتك إليّ هي أن أتكلم في قلبك .

أتستطيـع أن تُلبِسني جلدك وتَخيطه عليَّ و...فقلت : مهلاً مهلاً انك أنتِ الآن لا تتكلمين ولا التي فيك بل تلك الثالثة ... وإذا كان استهلالُ كلامها سلخَ جلدي .... وهنا وضعت يدها على فمها وجعل يَفُتُّ ضَحِـكها ويتكسَّر على صلابة قلبهـــا تكسُّر قِطَـع البلور الثمين في غير نظام ولا مَهَل .

ولما سكنتْ مما غَشِيها قالت : أنتِ برَهمي ؟ قلت: وهذه شرٌ من الأولى فهل خطر لكِ أني أعبد بقرة؟ قالت : وهذه شرٌ من الاثنتين فقد انتقمتَ مني بلطف .... ولكن ألا تعرف ان الحب في رأي أكثر الناس كزواج البراهمة ، إذا اقترن الرجل منهم بامرأة فقد أعدَّهــا للحرق إن بقيت بعده وللموت إن بقي بعدها ؟ قلت : أعرف هذا في عَقْـد البراهمة وحَسْـبُ فلا تَنـْزُ بك الفلسفة نَزوَتها فلسنا في النار ولا في دخانها . قالت : وما تقول في نار تعرِفُها ؟ ولفظتْ هـــذه

العبارة بصوت خرج يرتجف كأنه جاذبَ قلبهـــا وفرّ إليّ فراراً ؛ وأنزلتْ في مقطـعها نبرة استفهام حلو رقيق يمازجه شيء من التوبيخ في منتهى الظّـرف .

فاطرقتُ شيئاً وقلت: اسمعي ؛ ما أنتِ محاطةً بست جهات بل بست علامات استفهام ؛ وإن فلسفتك هذه جعلتك ما لا أدري:ألُـغْـزاً في إنسانة أم إنسانة في لُغز ؛ وعلى أيّها فإن العمر يذهب في فهمك وأحتاجُ بعد الى عمر جديد في حبك ولن تبعثني فلسفتك من قبري يوماً إذا سُوِّيت بجسدي الحفرة . لقد وضعك حسنُـك في طريقي موضع البدر يُرى ويحَـبُّ ولا تناله يد ولا تَعلَـق بنوره ظلمةُ نفس ، لكن كبرياءك نصبتك نصبة الجبل الشامخ كأنه ما خُلق ذلك الَخلق المتثر الوَعْـر إلا لتدقَّ به قلوب المُـصْعدين فيـــه وتهتزّ أجراسها اهتزازاً عنيفاً متصلاً في حبال الأنفاس والزفرات . كوني من شئتِ أو مــــا شئتِ ، خَلْـقاً مما يَكبُـر في صدرك أو ممـا يكبُـر في صدري . كوني ثلاثاً من النساء كما قلتِ أو ثلاثةً من الملائكة ولكن لا تكوني ثلاثة آلام . انفُـحي نفح العطر الذي يُلمس بالروح واظهري مظهر الضوء الذي يُلمس بالعين ولكن دعيني في جوّك وفي نورك . إصعدي الى سمائك العالية ولكن ألبِـسيني قبل ذلك جناحين . كوني مـــا أرادت نفسكِ ولكن أشعِـري نفسك هذه اني إنسان .

* * *

أيُّ حبّ هذا ؟ لقد امتُحنتُ منها بفتاة أبحث عنهـــا في النساء فلا أجدها وأبحث عنها في نفسها فلا أجدها، وكل تاريخ هواها كالرّحلة في أغفال الأرض ومجاهِلها[1] ، يأخذ الرحّالةُ رجليه بالمشي على قبر في عَرض الصحراء ويكون له من الحذَر في كل بَادِرَة عقل، ولا يزال يَلْفِظُه مَجْهَلٌ الى مجهل ، ولا يزال يتتابع في تلك الأرض التي تَغُولُ سالكيها[2] حتى يقطعَ الى معروفها مُنكراتِها جميعاً ....

* * *

---

(1) الأماكن المجهولة والمغفلة .

(2) تهلكهم ببعدها ومصاعبها .

الرسالة الخامسة

(أيام لبنان)

فجرُ الهوى من ثغرهـــا البسَّامِ
مُتطايرُ اللَّـمحـات فوق ظلامي

رفَّت عـليَّ ظِلالـــه وتنفَّست
بنَـدَى الشباب على فؤادي الظامي

ذهبت همومٌ حِرْتُ في أسمائهـا
وأتت همـومٌ مـــا لهـن أسامي

في حبهـــا والحبُّ في باسائـه
أهنـــا لأهليه مـــن الإنعـــام

حسناءُ صوَّرهـا الهوى في صورة
كادت تُعيد عبـــادةَ الأصنـــامِ

في منظر الأقمـار ألمحُ وجههـــا
وتُحِسُّ في لمس النســـيم غرامي

ولكهرباء الحب من لَحظاتِهـــا
سيّالُها المتدافـــعُ المترامي

يَنسابُ في مجرى دمي متلهبـــاً
فكأنه تيـــار بحـــرٍ ضِرامِ

يا كهرباءَ الحب رفقاً إنمـــا
هذي « الأنابيبُ » الضّعاف عظامي

* * *

ذهب المنـامُ ومن يُذَكّرهُ الهوى
قمـراً فلا يلقى الدُّجى بمنـــامِ

يا ليلُ أنتَ صحيفةٌ ملء الفضا
ءِ ومـا بهـا سطرٌ من الأحـلامِ

في كل نجـم من نجومكَ بَسمـةٌ
وقفت تُشير الى الهـــوى بسلامِ

وكان أفْقكَ والنجومُ سطورُهُ
تاريـخُ مـــا أسلفتُ من أيامي

مُتالِّق الجَنَبات مَشبوبُ الضيـا
خَضِـلُ الندى صافي الشمائل سامي

يا ليلُ أينَ الفجرُ أينَ زِمامُـــهُ
أيـامَ يُمسكه . الهـوى بزمـــامِ

أيام « لُبنَـان » وكانت ساعـــةً
غفـرت ذنوبَ الدهـر في أعوام

غَفَـل الزمان هنـاك من غَفَلاتهِ
ففررتُ لِلّذات مـــن آلامي

وقطعتُ من ثوب الشباب عِصابةً
وربطتُ من جُرحِ الحياةِ الدامي

ومضيتُ أصعدُ ذِروَةً في ذروةٍ
كالنجم مشتمـــلاً عليَّ غمامي

في كـل مَنزلةٍ وكـل ثنيّـــةٍ
يضعُ الهــــوى قمراً يضيء أمامي

وعلوتُ حتى عن أمانيِّ الحيـا
ةِ وغِبتُ حتى غبتُ عن أوهامي

وسموتُ في أفقٍ يذوب نسيمـــه
شغَـفاً إذا اهتزَّ غصنُ قَـــوامِ

أُفقٌ يُطلُّ على الحيـاة وهمِّهـــا
إطـلالَ مغفـرةٍ على الآثـــامِ

لُبنانُ فنٌّ في الطبيعة قائمٌ
دقّتْ محاسنه على الأفهامِ
متكبرٌ حتى على إكبارها
متعظمٌ حتى على الإعظامِ
قِممٌ تغطّى بالسماء كأنها
في الكون أمثِلة على الإبهامِ
شُمٌّ فوارِعُ علّمتْ أبناءَها
عند الحوادث كيف رَفْعُ الهامِ
ومَدارجٌ تُنبيكَ مُنحدَراتُها
أن الحياةَ مَذاهبٌ ومرامي
تركَتْ بنيها أينما حكمت بهم
نفَذُوا على الأسبابِ كالأحكام
وترى هنالك كلَّ شيء ناطقاً
أن لا يعيش هنا سوى المِقدامِ
جَبَلٌ تمنَّع في الطبيعة عزّةً
ومهابةً كالناب في الضرغامِ
يتقلّب التاريخُ من أبنائِه
في الغُرِّ بين فوارسٍ وكِرام

فالنُّورُ لم يَبْرَحْ على أرجائه
من مَبْسَمٍ أو من فِرِنْدِ حُسامِ
جَبَلٌ اذا وصفوا الرواسيَ لم يكن
أبداً لصدر الأرض غيرَ وِسامِ

* * *

يا نَفْحَةَ الجنّات من تلك الرُّبى
كم ذا يطولُ تلهُّفي وهُيامي
بيني وبينكِ بحر يَرْتمي
من عين مهجورٍ وبرُّ خِصامِ
لهفي على ريح الشّامِ ونظرةٍ
من أرضها لهوًى هنالك نامي
أرضٌ بنوها الصِّيدُ كيف تَواثبوا
عَنَتِ الحياةُ لهم بكل مَرام
حملوا النُّبوّة وهي روحُ بلادهم
ومضَوا بوحي العزم والإقدامِ
فهُمُ بأيّ الأرض حلَّ نزيلهم
قومٌ قضت لهمُ السما بمقام

أرضٌ كساها الوحي جواً عاطراً
وبنى لهـــا أفُـقـاً من الأنغـامِ

اللهُ زيَّنهـــا بكل بديعـــةٍ
باحتْ بأسرار مـــن الإلهـــامِ

فهُنا يُريك الحسنُ صفحةَ شاعرٍ
وهنـــا يُريك صحيفـةَ الرسّامِ

والحسنُ مختلفُ المواطنِ في الورى
لكنما حسنُ الطبيعـــة « شامي »

* * *

الرسالة السادسة

تقول أيها العزيز : « فصِفْها لي على حقِّها[1] وصفها على هواك بما يُزخرف الهوى من كذبه وانقلها اليَّ من مرآتها نقلاً ووافني عنها برسالة كليلة من ليالي القمر في الصيف تتنفّس كلُّ ساعة منها برائحة الفجر » . آه ما كان لي ولهذا البلاء الجميل ... فان عهدي بهذه النفس أنها مُصمِّمةٌ حكيمةٌ إذا فزعت تفزع الى ضِرسٍ حديد وإذا همّت أمضت عزيمتها فما يَنِدُّ منها شيء إلا ضَبَطَتْهُ[2] وأحكمتْه ؛ وان عهدي بهذا العقل أنه نافذ دَهِيٌ ذو حرب وسِلم في أساليب الحكمة والسياسة . ولكن الإنسان يُبتلى ثم يُبتلى ليعرف ان كل ما فيه إنْ هو إلا وديعة الغيبُ فيه ؛ فما شاء الله نفع وإن كان سبباً من الضُّر ، وما شاء الله ضرَّ وإن لم يكن إلا نفعاً ؛ والأسباب كالعمر لا يملك الإنسان استمراره لحظةً واحدة وقد يستمر على ذلك ما يستمر .

ان وصفها لهمٌّ جديد وانها الآن في نفسي غير من كانت ؛ فالكتابة

---

(1) على حقيقتها .

(2) لا يفلت منها إلا أمسكته والضرس الحديد كناية عن العقل والرأي القوي .

عنها ضربٌ من العَنَت، كالترجمة من لغة الى لغة فلولا كان ذلك والهوى مُتَّفِق ؟ ولكن يا شمس السماء مُجِّي من ريقك على هذا القلم حتى ينسج وشيَه وزُخرفَه واجمعي في هذه الصحيفة نورَ الابتسام وماء الدمع وأخرجي منهما ما يخرج النبات من الضوء والماء زهراً وثمراً وورقاً أخضر .. وحطباً يابساً بَعْدُ ....

* * *

أَمَا إنها فتنةٌ خُلقت امرأة فإذا نظرتْ إليك نظرتها الفاترة فإنما تقول لقلبك إذا لم تات اليّ فأنا آتية إليك ؛ خُلقت مقدَّرة تقديراً كان كل شيء فيها وضع قبل خلقه في ميزان الجمال ووُزن هناك باهواء القلوب ومَحابِّها . وكأنها بعد أن تم تكوينها أرسلت الملائكة في دمها نقطة عطر فهي تَنفُح على القلوب برائحة الجنة . وهي أبداً تشعر أن في دمها شيئاً لا يُوصف ولا يُسمّى ولكنه يجذب ويفتن فلا نراها إلا على حالة من هذين حتى ليظنها كلٌ من حادثها أنها تحبه وما بها إلا أنها تفتنه .

رشيقةٌ جذَّابة تاخذك أخذ السحر لأن عطر قلبها ينفذ الى قلبك من الهواء ؛ فإذا تنفَّستَ أمامها فقد عشقتَها .

وتراها ساكنةً وادعةً أمام عينيك ولكن قلبك يشعر أنها تهتز فيه وتضطرب فلا يزال قَلِقاً نافراً يتململ .

أما أنوثتها فاسلوبٌ في الجمال على حِدَة ؛ فإذا لقيتَها لا تلبث أن

ترى عينيك تبحثان في عينيهـا عن سرّ هذا الأسلوب البديـع فلا تعثر فيها بالسر ولكن بالحب . وإذا كنت ذكياً فأضافت إلى ما فيهـــا من بواعث الهوى إعجابها بك فقد أحكمتْ لك العقدة التي لا حلَّ لها .

ومهما تكن من رجلٍ باذخٍ فإنك بإزائها ترى كيف ينقاد جزء من الطبيعة لجزء من الطبيعة فلا براءةَ لك ولا مَخرَج من حبهـا ؛ ومهما تكن من جبل شامخ فإنك تتهافت تحت أشعة عينيها كما تتدحرج جبال الثلج في القُطْب اذا زاَحها عما حولهـا شعاع رقيق من أشعة الشمس تتنهّـدُ فيه نسمة ضعيفة .

وهي في لونهـــا ذاتُ بياض أسمر مُحمَرٍّ وضيءٍ يَغْـتَـرِقُ العينَ حُسناً ، وكأن ائتلاف الألوان الثلاثة فيها جملةٌ مركّـبة من لغة النور والهواء والحرارة ، معناها الجمال القوي الصحيح . هيفـاءُ ملتفـّةٌ لم يَهْـبِـط جسمها ولم يَرْبُ[1] تملأ قلبك كما تملأ ثوبَها . وتمايل أعطافها فلو خُلق غصنُ البـان امرأةً لمشى يتهادى في مثل مشيتهـا . وتنظر نظرة الغزال المذعور ألهِـمَ أنـه جميل ظريف فلا يزال مُسْـتَـوْفزاً يَتوَجَّـس[2] في كل حركة صائداً يطلبه .... وتنفجر لعينيك في حركاتها وكلماتها كما يتفجر أمام الظمآن ينبوعُ الماء العذب . وما رأيتها مرة إلا أحسستْ نفسي تُصوّرهـا تصويراً كأن الشمس والقمر قـد

---

(1) لا سمينة فضفاضة البدن ولا هزيلة نحيلة .

(2) يخشى والغزال دائماً كالمذعور .

صنعاها في الحسن صنعة جديدة . وتنتحِلُ هذه الظبيةُ أحياناً كبرياء الأسدِ فيكون ذلك منهــا في باب الدلال مخاشنةً بين طبعي وطبعها تبثُّ بها في الحب قوةً تبلغ قوةَ الافتراس في أسد جريح .

تريد الهوى وتعرفه وتنفخ في ناره وتُذكي ضِرامها بمــا لا يخمد ولا ينطفىء ولكن .. ولكن لترى من كل ذلك كيف أحترق .

تلك هي أيهــا العزيز ، من أيِّ الجهات اعتبرتَها لا ترى أوصافهــا تنتهي إلا كما تنتهي أطرافُ الواحة الخضراء في رمــال كالأقيانوس الجافّ تُقحِمك المَتالِفَ[1] وتبثُّ لك مصايدَ الموت في كل جهة ، ولا يخرجك منها إلا أن يكون عمرك أوسع منها ؛ ومع ذلك فلا تخرج إلا حيّــا نصفه موت أو ميتاً نصفه حياة . ان عاشقهــا المسكين في كل ما يناله من حبهــا ليمشي الى الجدْبِ بخطواتٍ خُضر تُعَدُّ عليه واحدة واحدة ، فهنا نبع يروي وهناك روضةٌ تتنفس وثَمَّ سَرحة تَفيءُ بظلها ، وما شئت من متاعٍ أحسنَ مــا تنظر ومن رَوحٍ أجملَ ما تبتغي ومن نعمة أبدعَ ما تتحفّـى بك النعمة ؛ ثم تنتهي من الواحة لأنك كنت تندفع ولا تُحيِس ويُسارُ بك ولا تدري ؛ وتنتهي بعد الفضاء الجميل الأخضر الى ذلك الفضاء المخيف الأبيض بياضَ عظــام الموتى .... فضاءِ الصحراء المهلكة التي تقول لك أولَ مــا تتلقاك : ليس من يُحس بك هنا فحيث شئت فمت ....

---

(1) تورطك في المهالك .

كانت والله قَدَراً مقدوراً لو علمتُ كيف تنتهي لاتّقيتُ كيف بدأتْ ، ولكني جئتها وأنا أقدِرُ أن أراها كما هي وأدعها كما هي فإذا القَدَر مخبوء فيها وإذا هو قد طلع عليَّ في ألحاظها وإذا أنا أراها فلا أدعها . وكان طريقي إليها بين رؤيتها وتركها ، أبدأ وأعود ، فلما تخطيتُ أولها لم أر لها آخراً ولما بدأتُ عدلتْ بي إلى الناحية التي كنت أجهلها فلم أدرِ كيف أعود .

* * *

وهي شاعرة تغمُر أفقاً واسعاً بأشعة خيالها، ولو ان نجمة سالت الله أن يخلقها امرأة فتنزلَ على الشعراء بوحي السماء وخيال السماء وأسرار السماء لكانتْها . غير أنها لا تحسن عربية الكتابة الفُصحى فإذا كتبت وقليلاً ما تكتبُ[1] اختَبَطَتْ في مثل البحر اللُّجيّ ففرّت الى الساحل ورقصت هناك على رَشاش الموج . وهي تألمُ لذلك النقص فيها وما أطرفَ ما تراه في سببه إذ تقول : إن المصري والسوري ومن يشبههما قد بلغوا من ضعف القومية التاريخية بحيث يريد أكثرهم الكمال لشخصه لا لتاريخه ، ولنفسه لا لأمته؛ فينسلُّ أحدهم من تاريخه ويغامر في آداب امة حية كالفرنسية والانجليزية ويستفرغ فيها كل همه فيدرك في خمس سنوات ما لا يأتيه به التاريخ المصري أو السوري في خمسين

---

(١) يستعمل هذا التركيب للندرة والعرب يستعملونه في نفي أصل الشيء، وفي القرآن الكريم « فقليلاً ما يؤمنون » أي لا يؤمنون أصلاً وهو إعجاز عجيب لمن يتأمله .

سنة لو بقي في أمته وادعاً يترقب نضج تاريخها . والشرقي إذا خرج من الشرق أحس أنه ترك وراءه بلاد القبور والمدافن والجثث المحنطة واستقبل بلاداً أصبحت الطبيعة فيها أسرع من أهلها في العمل للحياة والأحياء فهم يخدمون نواميس الكون لتخدمهم على الأرض لا في السماء . وكانت اذا انتهت الى مثل هذا قلت لها انك لتتكلفين أن تجعلي للانهاية حدوداً أربعة ... بل أربعة ذات قياس ومساحة وإلا فابتلي اوربا بمثل ما بلي الشرق منها أربعين سنة في جد السياسة وهزلها فإنك والله لا ترين منهم يومئذ إلا الزنوج البيض ... وكانت تقول ما أعجزني في أجناس الكتب إلا كتب اللغة العربية؛ لقد أحضرت شيخاً يدارسني كتاباً منها فكانا كتابين .... الذي أراه هو الذي أسمعه والذي أسمعه هو الذي أراه . ثم تغرق في الضحك وتقول في كلام ظريف كأنه يضحك ضحكاً آخر : فأنا والله في حاجة لإتقان هذه اللغة إلى عمامة وعشرين سنة في الأزهر ...

* * *

قلت لك إنها شاعرة تملأ سماءً من السموات فتكاد لا ترى فيها من جهات الأرض شيئاً [1] كأنما تركت المادة الإنسانية في أبويها وخرجت من ذلك الحطب والورق .... مخرجَ الزهرة الناعمة ؛ بنيةً من اللون وجسماً من العطر ونسيجاً متماسكاً من الشعاع. خرجت عاطفة مولودة

---

(1) كناية عن الطباع الحيوانية النفسية .

تكبّر وتنمو لتبلغ في العواطف سنّ شباب القلب ، لا يتصل بروحها شيء إلا نبت واخضر ثم نوّر وأزهر[1] كان طبيعة الجمال خبات في قلبها سرّ الربيع . وهي الصافية كرقة النسيم والناعمة كلمس الماء والضاحية كطلعة الشمس، فإن غضبت بدلت النسيم قيظا والماء ظمأ والشمس الطالعة غيماً يلف نهار الحب في ملاءة ليل أسود .

ولا يستخرج عجبها شيء كما يعجبها الكلام المفنن المشرق المضيء بروح الشعر فهو حلاها وجواهرها وما لسوق حبها من دنانير غير المعاني الذهبية . فانها لا تبايعك صفقة يد بيد ولكن خفقة قلب على قلب .

وما عسى أن أقول في فلسفتها واهتدائها الى موضع السر من الأشياء ونزولها وراء الحجة الى الأعماق البعيدة التي تغوص الحجة فيها واستبانة المشكل باللمح وتقليب المعاني في أصابعها كأنها ملقنة ما تحاوله ؛ و أخذها في سبيل البرهان حين تجادل ماخذاً لا يقام له ، وإظهار خيالها البديع في معان لامعة كأنما تتدلى عليها الشمس . فلو كنا نقول بالرجعة[2] لقلت إن (أرسطو) قد رجع بفكره الجبار الى هذه الدنيا ليمارس حياة الأنوثة ويتم امرأة كما تم من قبل رجلاً فينتظم كمال الجنسين في نفسه .

---

(1) نوّر : أخرج النوار .

(2) مذهب يقول به الهنود وغيرهم فيزعمون أن النفس ترجع الى الدنيا في جسد آخر لتستوفي كمالها .

على أن فلسفتها هذه قد جعلت من بعض قواها ذلك الجمود الذي تستعين به على الحب « جمودَ إحساس الكُتب ... » حتى ملأت نفسي بِمثل البحر مِلحاً ومرارة .

الجمال هِبةُ الله فليس لامرأة فيه عمل . ولكن العجيب أن أكثر ما يكون من عمل المرأة إنما يكون في إفساد هذه الموهبة كأن الجمال غريبٌ حتى عن صاحبته . تفسدها بالجهل إذا كانت جاهلة وتفسدها بالعلم إذا كانت عالمة وتفسدها بلا شيء إن كانت هي لا شيء ....

* * *

على أنها كانت تزعم أنها تبغض الفلسفة وأهلها وتقول : ينبغي أن تتحول الفلسفة الى شعر كالتراب نُعالجه ليستويَ مخضَراً فإذا هو لم يُنبِتْ فاردمْ به المستنقعاتِ واملأ منه الحُفَر وافتح فيه القبور ، والفلسفة وإن كانت من ضرورات الحياة والأحياء ولكنها عند بعض الناس أعجب شيء وعند آخرين شيء عجيب وعند الشعراء لا شيء عجيب .... أعرفُ العلم والمنطق ولكن الطباع غير العقول فمن كان في سنّ العقل استطاع أن يحمل في فلك رأسه السموات السبع والأرض ومَن فيهنّ وذلك هو الفيلسوف في سَمْتِهِ وهيبته ووقاره كأن فيه مكتبةً كبيرة أو كأن فيه ثِقَلاً خاصاً .... ؛ ومن كان في سنّ الطبع فلا يعرف إلا ما يميل إليه طبعه ، فإن يكن هناك منطق وعلم فهما في كيفية إيجاد الميل في نفسه ثم في استخراج اللذاذة الروحية لنفسه من

هذا الميل ثم في تهيئة الاستمتاع من هذه الروحانية بكل ما فيهـا لكل ما فيه .

هذا هو رأيها ولكن لا تنسَ انه رأيها الفلسفي.... وانه لن يكون لها رأياً إلا إذا كان لها بَديِّـا[1] فلسفةٌ قد جعلت من طباعها « جمودَ احساس الكتب» ، وهنا المصيبة فانها إن عَمِدَتْ الى غيظك اختبأت نفسها في كتبها وأوراقها ورأت هذه الكتبَ والأوراقَ دنيا غير الدنيا لها أشخاصٌ غير الأشخاص . أما بين الكتب والأوراق فهي تحمل في رأسها السموات السبعَ والأرضَ فكيف تشعر بك إذا أنت وحدك وقعتَ من السموات السبع والأرض ..؟

ولكن هل أنتَ إلا أنتَ وحدك ؟

* * *

(1) أي قبل ذلك أو كما يقول الناس (أولا) .

الرسالة السابعة

نالتْ مني رسالتك يا عزيزي وما كنتَ ظالمًا ولقد ظلمتَ. جاءتني سطورك جُمَلاً جملاً فانصبّت على قلبي انصباباً فغشيَتْه من حروفها بموج أسود كالظُّلَم. لك اللهُ أن تحسبني هالكاً وتقول إن روحي محمومة بتلك الفتاة وإني في حاجة منك الى علاج مرٍ، الى بضع نصائح من الكينا ....

فاما إني محموم بها فلا وما أبعدْتَ ، ولكن هي كانت أشبه بالهذَيان في الحب ، وأن الدهر ليحَمّ مراراً عدّةً متى ركبته الأقدار الملتهبة فإذا هو حُمَّ جاء من هذيانه نابغةٌ يهذي في رجل أو امرأة . وكان من علامة نبوغ تلك الفتاة أن فيها من برد الدنيا وسخونتها.... فيها والله برد شديد ويكفي أنه برد الفلسفة ....

قالوا جلّت الحقيقة أن تكون البشريةُ محلاً لتلقّيها ، وأقول جلّت مرة أخرى أن تكون المرأة هي هذا المحل ، فما للمرأة الجميلة والفلسفة ؟ أللهمّ لا تبتلِ بها من النساء إلا كلَّ ذات وجه غَضِنٍ[1]

(1) الذي فيه تكسر وتجعد من الهم والكرب و ... والقبح أيضاً ....

لا يضره ولا يضر أحـــداً أن تزيد فيه كربةً أو عقدةً أو مسئلة حسابية ....

ولكن ما أجمل الحقيقةَ ترسل أشعتَها وألوانَها في قلب الجميلة فتمتهد لها فيه أرضاً من الشعاع ثم تهبط من السماء الكبرى الى هـــذه السماء الصغرى جمـالاً في جمال وحقيقة على حقيقة وشعراً على شعر ومعنى يوحى به الى من هي تفسير له. تلك حقيقة الجمال الذي لا يفهَم إلا بمثال عليه من امرأة ؛ وإن من النساء تفسيراً بديعاً لهذه الحقيقة ، ومنهن تفسير ناقص ، وبعضـهن مغالطة في التفسير، وبعضهن مسخ ، وبعضهن كالتضريب والشطب لا يفسر شيئاً ولا يصحح شيئاً ولكن يمحو ويطمس ...

* * *

سآتيك بها الآن من جهة الشعر وقد وصلت جناحها بجناحي بعد مقدمها إلى مصر بأيام وخرجنا متَنَـدّيين[1] ذاتَ صباح في طريق تبعثرت فيه الشمس على الندى وعلينا . كانت هي صبحاً في ذلك الصبح وقد وافت كعادتها متكسرةً وللفتور مَس فيهـا ؛ فتورها النسائي[2] البديع الذي ينبئك في لطفٍ أيّ لطف أن عواطفها تبعدك عنها ولكن بشرط أن لا تبتعد ؛ فتور في الجسم تظهره الأنوثة التي

---

(1) متنزهين غبَّ الندى وهي كلمة استعملناها قياساً ولا يوجد في كتب اللغة .

(2) يظن بعضهم أن النسائي غلط وصوابها النسوي وكلاهما صحيح والأولى أفصح أحياناً.

نراها لنطّلع منه على سر الأنوثة التي لا نراها . وفتور في اللحظات تدل به على أن في قلبها منك شيئاً تحب أن لا يظهر لك وتحب كذلك أن لا يخفى عليك ....

ومشينا بين الجمال المنظور وبين الجمال المعقول وهي تجمعها في شخصها ومعانيها على حين أن الطبيعة لا تكاد تُرضيك من هذه الجهة إلا اذا عرضت لك ألف شيء جميل . ثم فِئْنا الى روضة على شاطىء النيل يسافر النظر في أرجائها وتتموّج للعين كأنها بحر أخضر تهتزّ عليه هنا وهناك أمواجٌ ملونة من الزهر .

وقلتُ : فلأكنْ آدمَ هـذه الجنة اليوم . قالت : ثم تخرج منها كما خرج .... قلت : فإن الخروج لا يأزفُ إلا عنـــد غروب الشمس « كقانون المجلس البلدي » .... فضحكت وحضرتْها النفسُ الثالثة[1] ثم مدت عينيها الذابلتين في شواطىء ذلك البحر الأخضر وقالت : ألا تظن يا آدم الصغير أن إدراك الجمال الطبيعي في الأرض هو بقيةٌ فينا من نفسية آدم الكبير لَدُنْ كان في السماء وقـد ورثناها عنه ؟ قلت : لا أظن ظناً بل أنا مستيقن ؛ فإننا طُردنا من الجنة ولكننا استرقْنا منها قدرَ ما وسع خيالُنا ؛ فإدراك الجمال في أي أشكاله وبأي طُرقه إنما هو متاعُ الروح الإنسانية على طريقتها الأولى في عهدها الأول . إن هـــذا الجمال لم يُخلق إلا للحسّ والتخيل فهو كلام بين السماء وباطن

(1) مرّ تفسير ذلك في الرسالة الرابعة .

الإنسان . قالت : فأنت الساعةَ تكلمك السماء ؟ قلت : وتقول لي....
قالت: يا ويحي ماذا تقول لك السماء ؟ قلت: فانها تقول ما لك منصرفاً عني بمَلَكٍ من ملائكتي ونسيتَ حتى الشمس فلم تنظر إليها ؟ قالت : وجوابك ؟ قلت : جوابي هو أن بعض الأسرار الإلهية يُبحث في العلم عنها وبعضها يكون من الجلال والإشراق والسموّ بحيث يُبحث فيها هي عن العلم ؛ فالسر الكامن في هاتين العينين وفي هذا التكوين وفي هذه الطلعة هو الذي أبحث فيه عن علم قلبي . قالت : أنت شاعر يعدّ قلبك شيئاً عجيباً وكثيراً ما أحاول الابتعاد عن ألفاظك . قلت : ولِمَهْ ؟ أيكون فيها أحياناً صوتُ شفة يمسُّكِ ؟ فسكتت وجعلت تَنْكتُ الأرض . ومضيتُ أقول : إن الجمل يَستروِحُ الماءَ[1] مَسيرةَ ميل وان بعض الحيوان يحمل إليه الهواء رائحة ما يخشاه أو يحبه فكيف لا تحمل اليّ ألفاظك عطر خديك وشفتيك فتستحيل ألفاظي كلها قُبُلات ؟ إن السائل المسكين حين يدعو لمن يُحسن إليه يقبّل يده بالفاظ الدعاء لأن كلماته لا ترتفع الى السماء إلا بعد أن تمسّ هذه اليد الكريمة المحسنة من كل لفظةٍ دعاءٍ بقُبلة شكر ؛ والمحبُّ حين ينظر في وجهه من يهوى نظراتٍ كالألفاظ وحين يتكلم بالفاظ كالنظرات...وهنا لمست كتفي وانتهضت وقد أشارت الى زهرة حمراء كوجه المستحي ثم مشت إليها فاقتطفتْها ورجعت ؛ فعلمت ان الكلام كان سقطة مني فتداركتُه وأردت أن أقلبه عن جهته ولكنها تنهدت

(1) يشم رائحته لخاصة فيه إذ خلق للظمأ .

ثم قالت : مـا أحببتك شخصاً بل شعراً ولا انساناً بل فكراً ، ولولا أسباب القدَر التي باعدت ذاتَ بينِنا .. وأخذ كلامهـــا يرقُّ ثم يرقّ حتى خرج من معانيه كلام لا يُتـلقّـى إلا بالشفاه ، وخُيـّل إلي أن نسيم الروضة يرتمي عليها ليتخطّـف تنهدها فجعلتُ أتخطف هذا النسيم وكأني لا أتنفسه بل أشربه شرباً .

* * *

في تلك الساعة ذكرت هي الشعر وقالت : إنه يُخرجنا الآن من حدود العمر الأرضي، فإن في هذا العمر ساعاتٍ لا تحسَـبُ منه إما لأنها أبدعُ وأجملُ فلا يلائمها، وإما لأنها أقبح وأسخف فلا تلائمه ؛ أفتُـراها أقبح وأسخف ....؟ قلت : يا شاعرتي العزيزة إن اللغة أيضاً تخرج من حدود الأرض أحياناً فهي في مثل هذه الساعة في مثل هذه الروضة في مثل هذه الجميلة لا تؤدّي إلا معنى الجمال والحب . أما الأقبح والأسخف فلا يدخلان هنا إلا بعد أن نخرج نحن ويدخل غيرنا ....

قالت : يا لك من « عقل جميل » كما يسمّـي الفرنسيون ظرفاءهم . ثم تناولت من المَـثْـبَـنَـة[1] في يدها أنبوب قلمها الرصاصي المصنوع من الذهب وأخرجت دفتراً صغيراً . وغمست سنّ القلم في ثناياها وفكرت لحظة ثم غمسته ثانيةً ثم كتبت في طُرّة الصفحة هذه الكلمة « الشعر » .

---

(1) المثبنة كيس تحمله النساء تضع فيه بعض أداة الزينة .

ونظرت إليّ باسمة وقالت : خذ هذا القلم واكتب كلمة صغيرة في الشعر لأنقلها الى الفرنسية في مقالة لي ....

آه لو أن الكهرباء اجتذبت القلم من يدها ما كانت أسرع مني في اختطافه . وجعلتُ أغمسه في شفتيّ مرةً بعد مرة بعد مرة ولا أكتب شيئاً وهي تضحك وتقول : ما لك لا تكتب ؟ فاقول : هكذا اعتدت في المدرسة وكنت بليداً ....

ثم كتبتُ ولكن بعد أن خالط فمي طعمُ الرصاص من كثرة ما غمستُ القلم .... وكتبتُ وأنا أشعر بأنفاسها وعطرها ومعاني لحظها يتحولْنَ في نفسي الى كلمات :

* * *

ما هي العاطفة المهتاجة في نفس الإنسان اهتياجاً لا يُريه الحياةَ أبداً إلا أكبرَ أو أصغرَ مما هي ؟

ما هو المعنى الساحر الذي ياتي من القلب والفكر معاً ثم لا ياتي إلا ليُحدِث شيئاً من الخَلق في هذه الطبيعة ؟

ما هو ذلك الأثر الإلهي الكامن في بعض النفوس مُستكنّاً يتوثب بها ويحاول دائماً أن يعلو الى السماء لأنه غريب في الأرض ؟

وما هو الشعر ؟

هذه الأسئلة الأربعة يختلفُ بعضُها عن بعض وينزع كل منها الى مَنزَع ولا جوابَ عليها بالتعيين والتحديد في عالَم الحسّ لأن مَرَدَّها

الى النفس والنفسُ تعرف ولا تنطق ؛ وشعورها إدراك مخبوءٌ فيها وهي نفسُها مخبوءة عنا. ولكن العجيب أن كل سؤال من هذه الأربعة هو جواب للثلاثة الباقيات ؛ فالعاطفة هي ذلكَ المعنى وهي ذلك الأثر وهي الشعر. والشعر هو العاطفة بعينها وهو الأثر وهو المعنى ؛ وهلمَّ جراً.

* * *

سبحانكَ يا من لا يقال لغيره سبحانك. خلقتَ الإنسان سؤالاً عن نفسه وخلقتَ نفسه سؤالاً عنه وخلقتَ الإثنين سؤالاً عنك. وما دام هذا الإنسان لا يحيط به إلا المجهولُ فلا يحيط به من كل جهة إلا سؤالٌ من الأسئلة ؛ ولا عجبَ إذن أن يكون له من بعض المسائل جوابٌ عن بعضها.

هذه هي الطريقة الإلهية في دقائق الأمور، تُجيب الانسان الضعيف عن سؤال بسؤال آخر.

ولقد أكثروا في تعريف الشعر وجاؤوا فيه بكل ألوان القول. ولكن كثرة الأجوبة جعلته كأنه لا جواب عليه. بالغوا في تقريبه الى الروح فأجْرَوْا في حدّه كلَّ عناصر الجمال والفضيلة ودلوا بالخيال على حقيقته إذ رأوا انه لا يدل على حقيقته إلا الروح وحدها وهي غامضة فهو غامض وتفسيره في مئة تفسير.

الشعر وراء النفس والنفس وراء الطبيعة والطبيعة من ورائها الغيب ؛ فلو جمع ما قيل في الشعر لرأيته يصلح في أكثر معانيه أن

يقال في النفس ثم لرأيته مفهوماً من جهتنا وغير مفهوم من جهته . وما الشعر إلا أول المعاني المُبهمة والدرجةُ الأولى من سُلَّم السماء الذاهبةِ إلى عرش الله ؛ وهو كذلك أولُ ما في الإنسان من الإنسانية .

في هذا الكون مادة عامة يسبح الكونُ فيها وتنبعث من قوة الله وإرادته وهي دائمةُ التركيب والتحليل إيجاداً وفناءً ؛ وما أرى الشعر إلا تأثير هذه المادة في بعض النفوس العالية الكبيرة التي تصلح أن يسبح خيال الكون فيها .

بهذه المادة تمتزج نفسُ الشاعر بكل ما تراه ؛ ومن هذا الامتزاج يتكون الشعر . فإذا أردتَ أن تتحقق ذلك فانظر إلى نفس الشاعر العظيم تمتزج بالجمال الرائع في نفس الجميلة ، وبالحب في نفس الحبيبة ، وبالطبيعة في المعنى الطبيعي ؛ وانظر إليها حين تتصل بأسباب اللذات والآلام ؛ حين تُثيرها اللحظةُ والابتسامة، ويَهيجها الصدُّ والإعراض، ويحزنها الحزن ويسرُّها السار ؛ حين تخترق بالفكر حجابَ هذه الإنسانية وتَثِبُ بالعاطفة فوق الطِّباق العليا وتستمدُّ من الشعلة الأزلية لوناً من ذلك الضِّرام الذي اشتعل به في أصل الخلقة كلُّ كوكب يتلهَّب .

* * *

ما أشقى نفسَ الشاعر ؛ فإنها لسموِّها تجهل ما هي من هذا العالَم فلا تزال تمتزج في أرضنا بكل ما يحزنها ويسرها لتعرف ما هي ؛ ولن

يكون الشعر العالي أبداً إلا التقاءً بين نفس ساميةٍ وحقيقة سامية. ومن ثَمَّ كان الشاعر العظيم يُحب ويُبغض ويضحك ويبكي ويرضى ويغضب، ولا يحس من كل ذلك وما إليه إلا السماء تحكم من داخله على الأرض.

وعلةُ شقائه هي نفسُها علةُ سروره بشعره وأن نَثرَ هذا الشعر من عينيه بكاءً ودموعاً، وأن انفجَر به أحزاناً وآلاماً قاتلة.

كل النوابغ لا يُرضيهم إلا أن يرتفعوا فإن من كان له جَناحان للطيران لا يُسر إلا اذا طار؛ وما جناحا الطائر إلا كتابان من الله يملِّكه في أحدهما على الشرق وفي الآخر على الغرب؛ بَيدَ أن الشاعر لا يُرضيه أن يرتفع عن الأرض وحدها فإن خياله لا يقع إلا ساجداً عند عرش الله؛ وذلك سبب آخر من أسباب شقائه في الدنيا، فأيُّما شرٍ مسَّ كبرياء روحه وأمسك من جناحيها رأيتَ أثره في نفسه الرقيقة وكأنما صدمه الصدمةَ ترمي بـه من فوق السماء الى الأرض في سقطة واحدة.

يا للعجائب إن سرور الشاعر الملهَم سرورُ نفسه وحدها ولكن حزنَه حزنُ العالَم كله.

* * *

قيل في أحد القدِّيسين إنه ما وجد السبيلَ الى الكمال الإنساني الأعلى ولا استطاع أن يكمل حتى كانت له نفسُ شاعر عظيم في جسم

فقير بائس محزون ، فضَربَ الله بتلك النفس على هـذا الجسم وبهذا الجسم على تلك النفس واستضاء منها القمرُ الإنساني في ليل حالكٍ من سواد أحزانه وهمومه .

فواهاً لك يا شعر الشعراء ؛ أنتَ النقصْ كلُّه مع لذاتِ الدنيـا وأنتَ الكمالُ كله مع آلامها . « انتهى » .

* * *

واستوعبتْ هذه الكلمة يا عزيزي في دفترها الجميل عشر صفحات. فعدَّتهـا واحدةً واحدة ونظرت إليَّ أظرفَ ما رأيتها ثم شكرتني وقالت: آه ماذا قالت ؟ لقد كنتُ أكتب وهي تُدير فكرها في اختراع بديـع لمكافاتي .

فكِّـر أنت أيهـا الصديق . أحسبك تسمع الآن صوتَ النقـد اللؤلؤيّ الثمين ؛ صوت عشر قُبُلات .

كلاً كلاً لقد كذب عليك الحسن وكذب عليك القمر . قالت .... لم يبق إلا عشر دقائق ...... وانفلتَت ضاحكةً ونهضت لا تلوي .

* * *

وملءُ شُعاعِ هذا السيفِ قتلُ

وملءُ جمالِ هـذا الحسن ذُل

ولولا سَطوةُ الأقـدارِ فـيما

يُحب الناسُ كان الناسُ مَلّـوا

فإن كثُـروا يقلُّـوا كي يَعودوا

كِثاراً ، ثم ان كثروا يقلوا

مسائلُ مـا لهـا حلٌّ ولكن

اذا نُسيَتْ ففي النسيان حلٌّ

وسانسى يا عزيزي .. سانسى !

* * *

الرسالة الثامنة

وادي هواكِ كانَ مَطلعَ شمسهِ
يُلقي على ياسي شعاعَ أماني
وكانَ هذا البدرَ في ظَلمائه
يَدُ راحمٍ مَسَحت على أحزاني
وكانَ أنجُمَ أفقه في ليلها
ذِكرى وعودِكِ لحنَ في نِسياني
يا ظبيةَ الوادي الذي نَبت الهوى
بثراهُ بين الزهر والرَّيحانِ
واديكِ من طول التدلل قد بدا
شَبَهُ القدود به على الأغصانِ
وكانَّ طِيبَ نسيمه قد مَسَّ من
شفتيكِ موضعَ قُبلةٍ وأتاني
هو جَنةٌ كلُّ النعيم بأرضها
إلا رضاكِ، فذاك من نيراني

دانٍ وما يدنو ، بعيدٌ ما نأى
يا شدَّ ما يضني البعيدُ الداني

* * *

أنا من علمتِ فتىً كانَّ مهزَّهُ
في الرَّوْع مسنونُ الغِرارِ يماني
كلُّ الحوادثِ حمرُهنَّ وسودُها
في صفحة الأيامِ من ألواني
نفسي من المَلإ العُلى وسجيَّتي
تأبى عليَّ مذلَّةَ الإنسانِ
ولقد أراعُ إذا ألحاظكِ لامستْ
قلبي كأني في هواكِ اثنانِ

* * *

الحسنُ ألوانٌ يمازجُ بعضها
بعضاً لتصوير الهوى الفتّانِ
وأرى الجوى والسحر والإيمانَ قد
مُزِجَتْ فمنها هذه العينانِ

وآه لو رأيت عينيها أيها الصديق تغزلان غزل السحر خيوطاً خيوطاً تلتمع واحداً من شعاع الحرير في واحد من شعاع الشمس. آه لو يتبين لك مكتومها في بعض نظراتها الساجية الطويلة التي تغفل فيها عن كل حذر وترسل فيها كل خواطر الحب. وتمدها إليك وكأنها تقول خذ هذه النظرة وانظرني أنت بها لتطلع على ما في قلبي. ثم ترخيها بفتور لين كأنما تصارحك أنها سئمت مقاومة فكرها وتريد أن تميل الى صدرك ولو بلحظة من عينيها ... كل شيء فيها من نتائج فكرها إلا تلك النظرات فإنها وحدها نتائج قلبها.

تنكر عليّ أيها العزيز وصفي إياها بالفلسفة ونعتها بالذكاء النادر والشعر العجيب وتقول: « إن هذا من سحرها فيك وإنها لو بلغت مبلغاً مما وصفت أو دونه لتوكدت بينك وبينها علائق من تحت النفس ومن فوق القلب ولكنك تصفها بما لا يتصور في وهم ولا يهجس في ظن إلا وهمك أنت وظنك أنت لأنك أنت.... »

فوالله ما كان أمرها على ما رجمت[1] وأنها لأبلغ ذات لسان وأبرع ذات فكر وأروع ذات نفس، ولو كنا سليلي أبوة[2] ما شهدت لها بأكثر من هذا حرفاً، ولو كان دمي من أعدائها ما نقصتها من هذا حرفاً، وعلم الله ما أبغض فيها إلا هذه التي

(1) أي ظننت بالغيب.

(2) أخوين من أب واحد.

أشهدُ لها .... ولو أن الله مكَّنها من لغة كتابه الكريم لَغُصَّ منها في هذا الشرق العربي كلُّ كاتب وكاتبة غُصةً لا تُساغ ولا تتنفَّس .

وإني لأكتب إليك رسائلي هذه والقلبُ يَنْفُضُ في أضعافها[1] ما لو قرأته لَوَرَدَ عليك من أضواء المعاني في جمالها وحبها وأوصافها ما يملأ نهاراً بين صبحه ومغربه يبدأه بشمس ويختمه بقمر .

* * *

لقد كنتُ اذا جاش بي حبُّها وثار منه ثائره فحاولت أن تَربِطَ على قلبي وتُثَبِّتَ هذا الفؤاد القَلِقَ ؛ جاءت بكلام نَضِرٍ تَنبت منه السلوةُ في الحب القفر الذي لا يُنبِتُ شيئاً ؛ وجعلت الملائكة تنزل في العُشِّ الذي بناه الشيطان لنفسه في القلب وعَشَّشَ فيه ؛ فلو أن كل حبيبة مثلُها وكل محب مثلي لكان الحب تغييراً في الإنسانية ولما احتاج الناس الى قوانين وملوك ولكن الى حبيبات وإلى حب .

إن الرذيلة واحدة ويتعدَّد أهلُها فمها كَثُروا ألوفاً وملايين فهم واحد في المعنى إذ يتلو كل منهم يَتلُوَ صاحبه ويَقْتاسُ بـه فكأنهم صورٌ متكررة لأنهم في الرتبة المنحطة كالنبات تُخرِجُ الحبةُ منه ألف حبة مثلهـا لا تمتاز واحدةٌ من واحدة ؛ ولكن كل من قام بفضيلة فهو فضيلةٌ قائمة بنفسها ، فمها قلَّ الفضلاء فهم كثيرون لأنهم

---

(1) بين سطورها وحواشيها .

في الرتبة العُليا ولأنهم وحدهم الناس . فلو صحَّ الحبُّ وأطَاقَهُ أهلُه وصبروا على ما يَحِزُّ في الصدور منه وتَوَجَّرُوا العلاجَ المُرَّ[1] الى ساعة الشفاء لكان كل مُتَحابَّيْن عالَماً قائماً من اثنين لإنشاء عالَم لا يُعَدُّ من صفات الفضائل وأنواعها .

كانت تقول لي ، انَّ القلوب الضعيفة هي التي تصدأ في فكرة واحدة تُلِحُّ عليها حتى تتاكَّل صَدَأً ثم تتفتَّت ؛ فإذا حَدَثَتْ عليها الحادثةُ انكسرتْ ولم تَقُمْ لها ، وبقيتْ زمناً طويلاً في الهموم حتى تتعب الحوادث والأقدار المختلفة في أيام تتصرَّم بعد أيام الى أن تجمع من حُطام القلب قلباً متحطماً .

ولكن القلوبَ القويةَ الصارمةَ ذاتَ الصدور الجريئة الواسعة تكوِّنها القُوَى المختلفة من العمل والفكر وعدم المبالاة على هيئة تجعلها مَرِنَةً في صلابة فهي تلتوي ولا تنكسر، وما أسرعَ ما ترجع كما كانت اذا لوتْها الخيبة أو نَجَمَتْ لها قاصمةٌ من الحوادث التي هي مَطَارِقُ القلوب لا تضربُ إلا عليها ولا تحطم إلا فيها .

أقول لك « عدم المبالاة » فافهم عني فإني أريد أن تحفظَ هذه الكلمة وتَعِيها من بَوَادي هذا الحب الى تَواليه الى أعقابه[2] . إن

(1) أساغوا ؛ يقال : أوجرته الدواء – اذا أكرهته على شربه .

(2) من أوله الى تاليه الى آخره .

عدم المبالاة يكون في بعض الأحيان وفي بعض الأمور هو كلُّ ما تكلفنا به الطاقةُ البشرية من المبالاة ...

ثم تقول : إنما أنتَ مني في باب من أبواب الفكر فإياك لا تتسلطْ عليك حاسة من حواسك فإن لهذه الحواس ضراوةَ السباع وكَلَبَها[1] ؛ والعاطفة تجعل الإنسان أشكَلَ بالملائكة والحاسة تجعله أقربَ للشياطين ، والحب كالخمر كلاهما نشوةٌ وكلاهما دواء فلا تُجاوز حدَّ الطب فيما ترى ولا حدَّ الشعر فيما تفهم ، وإلا كنتَ كالمدمن لا يكفيه إلا مِلءُ جوفه حرّةً وظمأً ومرضاً وجنوناً . وإذا هو ملأه توهّم أنه يَسَعُ بحراً من الخمر ولا يزال يطمع في الانتشاء ولا يزال يُسرِف على نفسه حتى يذهب عقله وينكفىءَ وما به قدرةٌ على شيء ولا على أن يتوهم شيئاً . اجعل الحبَّ تعلُّلاً ودع مَكارِهَه في ناحية . وميّز بين ما يجب أن يبقى خَيالاً وما يجوز أن يكون واقعاً ، فإن أردت أن تُخرج من كل صورة في خيالك صورةً من الواقع أشقيتَ نفسك واستفرغتَ كلَّ همك وقواك في باطل وعبث ليس مثلهما باطلٌ ولا عبث . دع المعاني في ألفاظها إن لم تؤاتِكَ الأسبابُ وعللُ الأقدار على خلقها أعمالاً فإنك إن داريتَها ولم تجئك بالمسرّة التي تريدها جاءتك بغيرها وخرج منها على العلاّت شيءٌ ما يكون منه أمرٌ ما .... وكن في قوة عواطفك وإحكامها وضبطها كالمصارع الجبار الذي لا يُوضع

---

(1) شدة الحيوانية فيها .

جنبه[1] فإنه كما تعلم يعرك بكل جهة من جهاته أنواعاً من أقوى القوة ممثلة في أجسام من أعنف العنف ؛ فصدره الذي لا يعطف وظهره الذي لا يضغط وأطرافه التي لا تهن ولا تكل ، وكل لوح فيه إنما هو رجل تام الخلقة وثيق التركيب لأن كل ما فيه قوة بالغة في قوة بالغة ، ولأن الرجل لم يجتمع كذلك إلا من المكاره والغمرات التي خاضها وثبت عليها حتى كأنما خرج بها من وزن رجل الى وزن جبل .

ثم تقول : دع الدماغ يحلم نائماً أو منتبهاً ، ولكن متى انعدل الليل راجعاً الى مآبه واستدار النصف المضيء من الكرة فلا تجعل حلم الرأس الذي هو أداة الخيال سبباً في عذاب الحواس التي هي أدوات الواقع . واقطع من نفسك أسباب المطمعة الخيالية تجد كل شيء قاراً في موضعه لا ينحرف ولا يضطرب ولا يتململ ؛ وتذهب أحلام النوم في النوم وتأتي حقائق اليقظة مع اليقظة وكنا في انتظارها فلا يفجأنا منها شيء . إنك ربما تأتي في أحلامك مـــا لا يسوغه عذر ، وترى وتسمع ما لا وجود له ، وتجد منزعاً من أمور ليس فيهـــا منزع ، وتموج بك العوالم كلها وأنت ساكن في نومك مستثقل حتى على الحركة الضعيفة . وحسبك بعض هذا في الدلالة على أن الدماغ لا يسكن الى نزواته عاقل لأنه مصنع المستحيلات كما هـو مصنع الممكنات..

* * *

(1) لا يغلب فيرمى على الأرض .

آه يا عزيزي لو رأيت كيف تختلط المعاني بانفاس شفتيها وكيف تُقبل عليك ألفاظها وفيها من اللطف واللين والرقة وألوان النفس أكثر مما في خدي عذراء سافرةٍ بين عشاقها لا يفارقها الحياء من الألحاظ ولا تفارقها الألحاظ . إنها لتُميتُ داءَ الصدر من الوساوس والشهوات اذا هي كلمتك بتلك اللغة القلبية التي تمحق حواسكِ مَحقاً إن كنتَ رجلاً كريم النفس ؛ وإذا هي استسلمت بكلماتها إليك ولكن في حماية ضميرك . تُسمعك صوتَ ضعفها ملتجئاً الى قوتك وكأنها تقول لك إن نصفَ كلامي هو هذا والنصف الآخر هو ثقتي بشرفك .

في المرأة الجميلة أشياء كثيرة تقتل الرجل قتلاً وتخليجُه عن كل ما في دنياه كما تَخلجُه المَنية عن الدنيا ؛ وليس فيها شيء واحد ينقذه منها اذا أحبها ، بل تأتيه الفتنةُ من كل ما يُعلِنُ وما يُضمِر ومن كل ما يَرى وما يسمع ومن كل ما يريد وما لا يريد ؛ وتأتيه كالريح لو جَهدَ جهدَه ما أمسك من مَجراها ولا أرسل . ولكن في الرجل شيئاً يُنقذ المرأة منه وإن هلك بحبها وإن هدمتْ عيناها من حافّاته وجوانبه . فيه الرجولة اذا كان شهماً ، وفيه الضمير اذا كان شريفاً ، وفيه الدمُ اذا كان كريماً . فوالذي نفسي بيده لا تعوذُ المرأةُ بشيء من ذلك ساعةَ تُجَنُّ عواطفَه وينفرُ طائر حِلمه من صدره إلا عاذَت والله بمعـاذٍ يحميها ويعصمها ويمدُّ على طهارتها جناحَ مَلك من الملائكة .

الرجولةُ والضميرُ والدمُ الكريم : ثلاثـــة اذا اجتمعن في عاشق هلك بثلاث : بتسليط الحبيبة عليه وهو الهلاك الأصغر ؛ ثم فتنتِه بها فتنةً لا تهدأ وهو الهلاكُ الأوسط ، ثم انقاذها منه وهو الهلاكُ الأكبر ... ألا إن شرفَ الهلاك خـــير من نذالة الحياة .

* * *

الرسالة التاسعة

(القلب الكريم المتألم)

إن رسائلي إليك أيها العزيز لتنتزعُ مني دواعيَ هذا الصدر الحزون[1] فإنها كفيضةِ الملآن[2] ولكني أراها لا تذهبُ بهمٍّ أستريح إليه، إلا رجعت بهمّ ألتوي عليه؛ وقد يكون بعضُ العزاء عن المصيبة تفنناً من المصيبة نفسها ؛ كدمعة مَن يرثي لك من النكبة يجيئكَ بها تعزيةً ولها على نفسك الأبية غمزٌ مؤلم قد يكون أشدَّ من ابتسامة العدو الذي يشمت بك .

أكتب إليك في أحزاني اضطراراً أيها الصديق فأنت الجسم الثاني لروحي وقد هدم ذلك الحب صورتي الأولى فسكنتُ منك لصورتي الثانية، وما أعجب رحمةَ الله إذ تحيلُ كل همٍّ في هذا الإنسان الضعيف الى قوة تبعثه على التماس العطف والرقة من كل النواحي الإنسانية ؛ كأن في النفس بجانب كل شيطان مَلَكاً إن لم يستطع تحويلَ الشر الى خير أخرج منه نزَعة من نزَعات الخير .

---

(1) أسباب الضجر ونحوها .

(2) الملآن يفيض فيخف ما به .

واهـاً لهذا القلب الذي أحمله فإنما هو عقلُ فيلسوف خُلق على شكل القلوب ؛ فهـــو يأتيني من كل شيء بشيء غيره حتى تلك التي أحبها جاءني منها بهذه التي أبغضها وبقي مع ذلك يتفلسفُ في حبها... ولكنه قلبٌ جليل سامي النزعة قارٌ كالصبر مجتمعٌ كالإيمان ؛ يقول لكل حاسة أو عاطفة أرادت أن تنهضّم فيَّ أو تستذِلّ : يا سَرحَةَ الوادي لا يزال هناك جبلٌ لا ينحني لعاصفتك .

قلب لا أدري أوهبني الله له أو وهبه لي فهو مثَارُ الألم ومهبِط الرحمة جميعاً . ولقد ورد في أثر من الآثار إن العبد اذا دعا لإنسان قد اشتدّ بلاؤه فقال : اللهم ارحمه ؛ يقول الله: كيف أرحمُه من شيء به أرحمُه . وكيف يرحمني الله من هـــذا القلب وقد رحمني به في ذات نفسي ؟

إنما علة البلاء من ناحيتنا نحن ، ثم من هذه الجهة الفانية جهة الجسم الذي يَستيقِن انه يعيش ليموت وهو مع ذلك يقبل المقدّمات وحدها ويحاول دائماً أن يفِرّ من نتائجها .. كأن النتيجة ليست في المقدّمة والآخرةَ ليست في الأولى ؛ أما تلك الناحية الخالدة ناحيـــة الروح فهي كما قيل في شجرة الصندل : تعطّر الفاس التي تضربهـــا وتَحْطِمُ فيها .

هذا القلب هو سر الجمال الإنساني لأن فيه بَرَكَةَ النفس وزينتها وسَكَنَـها ؛ فالبركة تنبت من الخُلق الطيب والزينة تخرج من الفكر

الجميل والسكَن يثبتُ بالإيمان واليقين ؛ وما جمال النفس الانسانية خُلُق وفكرة وفضيلة مؤْمِنة

* * *

ما زلتُ منذ وَعيتُ كأنما أفرِغ في قلبي هذا قلوب الناس بتوجُّعي لهم وحناني عليهم ، وكأنما أعيش في هذه الأرض عيش من وضع رجلاً في الدنيا ورجلاً في الآخرة ؛ أحفظ الله في خلقه لأني أحفظ في نفسي الرحمة لهم وإن كان فيهم من يُشبه في التَّلفُّفِ على دواهيه باباً مقفلاً على مغارة مظلمة في ليل دامس .. وأتـّقي طائلة قلوبهم[1] وألبسهم على تفصيلهم قصاراً أو طوالاً كما خرجوا من شقّي المِقَصّ المجتمعين من الليل والنهار تحت مسار الشمس ؛ وأُصدِرهم من نفسي مَصدراً واحداً لأني أعلم أن ميزان الله الذي يَشيل ويَرْجَح بالخفيف والثقيل ليس في يدي فلا أستخفّ ولا أستثقل ، وأعرف أن الفضيلة ليست شيئاً في نفسها وإنما هي بالاعتبار فلا أدري إن كانت عند الله في فلان الذي يحقّر الناس أو فلان الذي يحقّره الناس.وليس من طبعي أن أتصفّح على الخلق[2] فإن من وضع نفسه هذا الموضع هلك بالناس ولا يَحيَوْن به وتعقّدوا في صدره كما يتعقد الماء العذب بالغُصَص المؤلمة ، ورَمَوْه بذنوبهم من حيث لا يُمَحِّصُ عنهم شيئاً[3] . وقد خلقهم من عَلِمَهُمْ

(1) كناية عن الحسد ونحوه .

(2) تصفح على الناس : التمس عيوبهم وفتش عنها .

(3) محص الذنب بالتوبة محاه .

كيف يجيئون وكيف ينهبون ، وما تقذِفُ بطون الأمهات في هذه الأرض إلا تواريخ كُتبت في الأزل كما قدّر الله ولما قضاه فمن استقامَ فعلى الخطّ الذي امتدّ له ومن زاغَ فللدائرة التي انحرف به محيطهـا المائل من طَرَفيه إن سَفَل وإن علا .

لقد أقمتُ من نفسي لهذا الخَلق جبَلاً وان هذا الجبل ليتدحرج عليه الصخر الصلد ويلصق بـه الحصى المسنون وينغرز فيه الشوك الدامي وتنبت منه الفروع المُرّة وترسو بين أطباقه العروق الضاربة، ولكنه على ذلك جَبَلٌ وهو بذلك أتم روعة ورهبة . ولكلّ شيء مما عددتُ معنى في نفسه ، ولكلها مجتمعةً وحدها معنى آخر ولجميعها مبعثرة يَتخطّى المعنيَيْن في الجبل معنى ثالث .

فما أضيقُ بالناس ولا أتبرّمُ[1] ولي أبداً مع الضعفاء والأقوياء سَفَحٌ[2] ظليل مُخضَرٌ وقمّة عالية متمرّدة ، وإني على ما وصفتُ لأرى في أعماق هذا الطود الراسي بركاناً يتزلزل به كلما اضطرم جاحِمُه ، ذائباً في الأغوار البعيدة تُمسِكه الأرض امساك العزيمة وتشدُّ عليه شَدّةَ الصبر على أنه لُجَجٌ من النار ، فترى الطّود الشامخ قائماً على الأرض كأنه أرض مستقلة وفي جوفه ما يَحْطِمُهُ مما يمور ويضطرب[3] .

وكأني إذ لا أحاسب النـاس أحاسب نفسي بكل ذنوبهم اليّ

---

(1) أتضجر ؛ وبرم بالشيء (بكسر الراء) وتبرم .

(2) السفح من معانيه أسفل الجبل .

(3) يسيل ويغلي .

فانفجرُ عروقُ دمي عليهم ، وكان ذلك الكمال الإنساني الذي لا يزال بعيداً عني يحاول أن يقتلعني من أساسي لأثب إليه في أقاصي علوّه .

أن النملة من النمل لتخاف على قريتها من قدَم الطفل الرضيع ما نخاف نحن على كرة الأرض من أكبر نجوم السماء متى خشينا أن يتنفس عليها فيرسلها زفرةً في صدر الأبد . وكم بين قرية النمل وبين كرة الأرض ، وأين وطأة الرضيع من صدمة النجم ؟ ولكن كل شيء فإنما هو باعتباره في نفسه وباعتباره لنفسه، ألا وإن الزلزلة التي يُضرب بها ذلك الجبل القائم من نفسي إنما رقة رقّةُ الحب .

* * *

وإن تَعجَب فعَجَبٌ ما ترى أن هذا القلب الانساني لا يُصبح هَشيمةً[1] في جنبي صاحبه يأخذ الناس منه ويدعون كيف شاؤوا إلا اذا أنبت الله صاحبه المسكين من نبعةٍ باسقةٍ في مغرسٍ طيّب[2] وأخرجه في صيغة كريمة وأودع في أعصابه ميراثاً سامياً من الدم . ولقد تجد هذا الرجل الكريم ملءَ ذكائه دهاءً ونُكراً[3] ونَفاذاً في أعضل الامور يَنقعُ في الحوادث فكره كما ينقع الثعبان نابه المسموم ، وقد تجده في بدنه شديد الفِحْلة معصوباً عصباً كأنه من عضلاته في

(1) مهشوماً محطماً وفلان هشيمة الناس وهشيمة كرم يأخذه الناس كيف يشاؤون لانطباعه على الكرم والسهولة .
(2) المراد بكل ذلك كرم الأصل .
(3) أي سياسة ومكراً .

لفائف الحديد[1]، ولكنك تجد قلبه شيئاً غير هذا كله، لا يُسرع إلا في هدمه ولا يتركه يدور كما يدور غيره على الخطوط والأضلاع الطويلة من زوايا الحياة بل ينفذ به الى الهموم من أقطارها على استقامة، فما أسرع ما يتهدَّمُ وتتقصَّفُ سِنُه بعضها على بعض[2] وربما كانت في الأربعين فلا ترى إلا ان العمر يخيِّط في ثوب همه باربعين إبرة.

بهذا القلب رأيتُني كلما كبرتُ صغرت الدنيا في عينيَّ وكلما تقدمتُ دانيت أطرافها العليا فاصبحتُ أشعر حقاً ان هذا العمر إنما هو سلَّم الى السماء لا الى غيرها؛ ومن هذا القلب اعتادت بعض سفن الأقدار أن تجد فيه حَلقةً ثابتةً متينة تشدُّ إليها جبالها إذا هي أرست على شاطئ الدهر باحمالها، فالناس يتناولون منها خِفافاً وثِقالاً ولكن الحلقة المعذبة لا عمل لها إلا أن تهتز وترتجَّ من الألم والشدة والعنف.

وفي هذا القلب أعرف موضع كل شيء إلا نفسي فما أدري أهو من الضَّعة بحيث صارت فوق أن تنزل فيه أم هو من السموّ بحيث صار نفساً وحدها؟ ولكنه على الحالين أشقاني بهذه النفس وطوَّح بي وبها في مهاوي الأحزان الى قرار بعيد.

* * *

(1) الفحلة هيئة الفحولة وقوتها في الرجل.

(2) تمر أيامه مسرعة.

في قلب كل إنسان معنى مـــن الأزل لأنه كان ذرةً في يد الله ، بيدَ أن هذه الذرّة تُمحَقُ في بعض الناس أنواعاً من المحق ، فتصيب الرجل وانه لعظيم جليل ولكنه في ميزان الله لا يَعدِل مثقال ذرة من حسنةٍ من رجلٍ حقير ، وتَربو في بعض الناس وتتنفخ فإذا هي في وزن الجبل الراسخ باعضاده[1] المترامي بنواحيه ؛ فيا قلبي المسكين ما أنت منهما ؟ لقد تعذبتُ بك طويلاً وتقلدتُ منك بليّتي فما تغمزُ بعللك ونزعاتك إلا في صميم الروح غمزاً كوَخز الإبر ، ولا تضربُ عروقي التي تستقي منك إلا على ألم تأتيني بـه إذ كنتَ لا ترميني إلا بشرّ ما تجدُ من هموم الناس ؛ وإذ ترى أن درس الشر والآلام إنما هو عنصر الفلسفة الأسمى وإنما هو الفضيلة المتحلّـــة لمن يريد أنــ يعلم ويرى كيف تتالم أجزاء الفضيلة في باطنها . فانت تنتشِــطُ[2] الحزن من كل شيء وتاتيني به لأتحزّن وأتالم فالمس بالحزن والألم مصراعي باب السماء.وأنت تبسط عليَّ رُواق المعاني المظلمة من الآلام والأحزان لأرى في ظلماتها أشعة روحي المضيئة بالإيمان والرضا .

رضيتُ يا قلبي المسكين أن تجتمع من حطامي المتناثرة وأن تكون سوِياً تاماً وأكون أنا الجسم الحيواني أشلاءاً وبقايا[3] ؛ فإني رأيت شرّ أهل الدنيا ذلك الذي هو أهنأهم بمتاعها حتى كأنه في شهواته ولذاته

---

(1) التلال المحيطة به .

(2) تختطف .

(3) الأشلاء : الأجزاء المقطعة .

لم يجتمع إلا من حطـــام قلبه المتبدد . الشهوات واللذات تبني عالماً والآلام والأحزان تبني عالماً آخر وهما يتجاوزان كما يلتصق حائط الليل بحائط النهار ؛ وأنت يا قلبي المتالم لا تُشرف على العالم الأول إلا ما يشرف النظر العالي من البعيد البعيد لأنك طَودٌ باذخٌ رسختْ جذوره في العالم الثاني .

ان الإبرَة المغنطة[1] التي تهدي السفن باتجاهها هي القلب الذي تحمل فيه السفينة روح الأرض ؛ والقلب الإنساني هو كتلك الابرة غير انه يحمل روح السماء . ولولا حاسة الاتجـــاه الإلهي فيه لتمزقت علينا جهات الأرض[2] في أنفسنا فضللنا فيها وارتبكنا في فُتوقهـــا الواسعة حتى لا يهتدي إنسان الى الجهة الانسانية . ولكننا نتغافل عن هذه الحاسة فيه وترى أكثر الناس لا يُقبلون بانفسهم إلا على جهـــة أجسامهم ويطوي أحدهم الدهر الفسيح من عمره ومـا ارتفع قليلاً ولا كثيراً بل يكون كالطير في قفصه يتخبط بين أرض وسماء ، ومـا بين سمائه وأرضه إلا علو ذراع ... وان أشدّ ما كانت الحياة وأشدّ ما هي كائنة على من لا يجد لذة قلبه فيها ؛ وأصعب ما تكون الانسانية على من يعظم بحيوانيته وَحسبُ[3] ؛ فتراه وكان مئة حمار ركّـبت منه في حمار واحد ولكنه حمار عظيم ...

---

(1) البوصلة .

(2) كناية عن الشهوات الحيوانية .

(3) أي فقط ، وقد عم استعمال هذه الكلمة وكنا أول من استخرجها وأذاعها .

وما رأيت قلبي يلتمس لذةً من بعد إيمانه إلا في ثلاث : الفكر الإنساني الذي يهبط في أدمغة الفلاسفة والشعراء من أعلى السموات أو ينبع من أغوار النفس، والفكر الطبيعي الذي يملأ السماء والأرض نوراً وألواناً وجمالاً ، والفكر الروحي الذي يتلألأ لخيالي في عيني الحبيبة الجميلة .

* * *

الرسالة العاشرة

لقد وصفتها لك أيها العزيز وملأت رسائلي منها ؛ غير أني والله ما أدري أوصفتُها أم وصفتُ بها ، وكتبتُ منها أم كتبتُ عنها ، فإنما ذلك مطلبٌ دونه أن تجعل وصفَ الجمر يلذع لذعَ الجمر، ومهما أكتب فإنها باقية في نفسي لا تنقصُ على قدر ما تزيد ... إن فيها شيئين هما الفكرُ والجمال وفيَّ شيئان هما الخيال والحب، وهذه الأربعة تُنْشِئُها في نفسي خلقاً بديعاً لم أره لامرأة قطّ ، ففيها وحدها زيادة عن النساء لأن فيها وحدها نفسي .

أما سمعتَ بذلك الأعرابي الذي قيل له: ما بَلَغَ من حبك لفلانة ؟ فقال : والله إني لأرى الشمس على حائطها أحسنَ منها على حيطان جيرانها ... قد والله صَدَقَ وبرّت يمينه فإن في كلماته الشعرية لأثراً من عينيه إذ يرى الشمس على حائطها كالشمس على البِلّور الصافي لا على الحجر والمَدَر ؛ فهناك أشعةٌ أخرى من تلك التي وراء الحائط تنفذ الى قلب هذا المسكين فاذا هي سطعت لخياله في نور الشمس أضافت الى النور ألوانا مختلفة من ذلك المعنى الجميل الحيّ فلا تكون الشمس في عينيه أحسنَ مما هي وقتئذٍ ولو أنها طلعت على حائط من اللؤلؤ.

ليس الجمال ما يعلم الكاتب أو يدرسه الفيلسوف ولا هو مذهبٌ من مذاهب التلفيق في الجمل والألفاظ ولا هو كما صنع علماء الرياضيات الذين جعلوا الفلك كله بألوانه وجماله وما فيه من غموض الأبد مسئلة حسابية ... والأرضَ بما انبسط عليها من جمال الطبيعة مسئلة هندسية ... كأن الأزل كله خطوطٌ وزوايا وأرقام ؛ وتركوا جانباً حركة الفكر الأعظم القائم بالإرادة الأزلية ؛ وهي التي تطالع العقل من كل شيء بمعنى والخيالَ بمعنى آخر ثمَّ تكون هي في حقيقتها المجهولة معنى ثالثاً . ولكنك مع ذلك واجدٌ في الأرض من يتسكّع ويحمل الشمعة ليفتش في ضوئها عن النجم العظيم ...

* * *

لو أني سُئلتُ تسميةً لعلم الجمال لسميته « علم تجديد النفس » فإن الجميل الذي لا يجدد بمعانيه حواسك وعواطفك ويُعيدها غضةً طريةً كما فُطرتْ من قبل ، لا يُسمى جميلاً إلا على هذا المجاز الذي سمى به أحد القواد كتابه في الصنّاع الفقراء : (غزْو الخبز) ... لا تسل عن الجمال من يحسن الفكر والإبانة عن فكره ، ولكن سل عاشقاً يحسن الشعور والتعبير عن شعوره ؛ فذلك هو الشاعر من جهاته الأربع : جهة قلبه وفكره وحوادثه وحبيبته، وذلك هو تاريخ الجمال الذي يتكرر على الأرض أبداً والى مُنْقطَع الحياة في صورة واحدة كالحياة نفسها .

ألا ما أتعبَ الانسان بحياته وموته ؛ إن هذه الحياة مصيبةٌ كتبت على الأرواح لإيجاد عيوبها في عالَم العيوب ؛ والموت مصيبة كُتِبتْ عليها لنقل هذه العيوب معها الى العالَم الآخر ؛ فما عسى أن

يكون الجمال والحب إلا تخفيفاً من مصيبتين أو .. أو زيادة فيهما ؟

سأحدثك عن هذا الجمال كما أوحته اليّ عواطفي التي مــا تزال تدأبُ لا تأتَلي كالنحل على الأزهـــار والألوان ، وكما رأيته في تلك الحقائق الساحرة التي كانت تفيض بمعانيها على الجميلة فتكسبها غرابة الجمال وتُمَثّلها لعينيّ في ثلاثة ألوان : لون من وجهها ولون من دمها ولون من قلبي . سأنثر لك الجميلة وأسرارَ جمالها وتأثير جمالهـا نثراً ألّفني والله قبل أن أؤلفَه ، ومـا صعِـد إلى فكري وانحدر من قلمي إلا بعد أن وَقَدَتْ عليه الجمَراتُ الحُمْر فغلَى في القلب وتبخّر واندفع وطار إليك في كلام كالندى على الورق الأخضر .

* * *

إن في نفس هذا الإنسان أعماقاً بعيدة تنحدر أغوارُها من مَهوًى إلى مَهوًى إلى ما لا نعلم لأن النفس ما برِحت جزءاً من الأزل كبعض النور من النور ، ينفصل عنه وهو مُستقِرٌ فيه .

وقد نثر الله في أعماق هذه المصابيح المتّقِدة التي اهتدى في ضوئها الفكر الإنساني الى شيء من الإدراك الأسمى ؛ من ذلك النور الذي يشتعلُ ويتوهّج في أقطار السموات كلها . وكما ترى في أعماق الفضاء ترى في أغوار النفس ، فلا بدّ لهذه مما لا بدّ منه لتلك من معاني النور الإلهي ؛ فالكوكب يضيءُ في أعماق الفضاء والوجه الجميل يضيء في أعماق النفس .

ألم تَرَ الى المحب الذي أدنفه الحب كيف يشعر أنه متصل بالنور

الأزلي من الحسن الذي يعشقه ؛ وكيف يرى في أطواءِ نفسه أخفى الوساوسِ وأدقَّها كأنها مكشوفة لعينه على الضوء ؛ وكيف يظلُّ أبداً في حبه كأنما يبحث في الأرض عما ليس في الأرض ، ويحاول أن يجد في قلبه ما لا يُخلق في القلب . وكأنه وحده الذي يعلم من نفسه أن فوق كل طبقة طبقة أعلى وتحت كل عمق عمقاً أسفل ، فلا يَقنع بشيء لا من عاليها ولا من سافلها ؟ وانظر كيف يجعله حبه العظيم يرى العالم كله صغيراً حقيراً ؛ وإذا اتفقت له ساعة من حبيبته رآهــا عجيبةً كأنها ليست من الحياة أو ليست إلا الحياة ؛ فهل وَسِعَت نفسه من الحب شيئاً لا سبيل لأن يُقاسَ معنى العالَمِ به ؛ أم صارت أعماقهــا تطاوِلُ أعماق الفضاء؛ فهو بالحب كائنٌ فيما حوله وما حوله كائن فيه ؟

* * *

لا أرى سرّ الجمال إلا أنه شيء حقيقي من تلك القوة السماوية التي نسميها الجاذبية ؛ فكأن الله حين يُبدِع الجميل يُرسل في دمه مع الذرة الإنسانية ذرةً من مادة الكواكب هي سر عشقه وجاذبيته ، وهي بعينها معنى تلك القوة التي لا يزال الجميلُ يُخضِعُ بها كما يُخضع الفَلَكَ المُدار ، ويتسلّط على عاشقه كما تتسلط الأقــدار ، ويبُثُّ في الدم الإنساني مع مادة الدم مادّةً من النار .

وما أساليبُ الدلال أو ما نراه دلالاً في الجميل المعشوق إلا اضطراب تلك الذرة من سكونها ؛ فإنهــا متى تحركت للجاذبية جعلت الجميل يتلألأ من كل جهاته وانبعثت في كل ناحية منه نوراً فوضعت لكل شيء فيه معنى من المعاني الخيالية إذ هي معنى كل شيء فيه .

ولو أنك سألتَ عاشقاً أن يُصادِم من يحبُّ ويتّسع لهجرها ونبْذها ويتجافى عن هولها لكانت عاقبة ذلك في نفسه ويقينه ما يعلم من العاقبة في مصادمة الأرض لكوكب من الكواكب ، إذ يتحطم ولا يُغني شيئاً في تعطيل قوة الجذب المنصبّة من قمره الجميل على كُرة قلبه الضعيفة .

وكما نجدُ للكواكب في نظام السماء نعرَف نحواً من ذلك لكواكب الجمال في نظام النفس ، فليس كل ظريف جميل يَجذِبُ حسنه في كل دائرة على ما شاء وشاء الهوى ، وإلا فسدت الأرض وأصبح الجنسان فيها كحجرَي الطاحون لا عمل للأعلى إلا أن يطحن على الأسفل .... بل إن لكل جميل فَلَكاً لا تَعدُوه قوة جذبـــه فإذا هي تخطّته الى فلكٍ غيره بطل عملها أو عملت على ضعف أو وقعتْ ثَمَّ موقع صوت القنبلة ، يخرج منها وليس فيه شيء منها . ذلك بأن الله قد سلّط على هذه الأرواح السماوية مواداً مختلفةً من ثقل الأرض لا تبرح تُدافِعُ تلك المادة من جاذبية السماء فإما أبطلتْها وإما كسرتْ من حِدّتهـــا وإما أضعفتها وإما طمست عليها؛ ما لم تكن النفسان العاشقة والمعشوقة من فلك واحد في القَدَر الجارِي عليهما .

فلو أن أرقّ من غَمَزَ الحبُّ على قلبه من الشعراء الذين يجعلون الكلمة الواحدة كلاماً طويلاً ، يحدّثك يوماً عن تلك الجميلة التي كَلِفَ بها واختبلَتْه بحبها [1] فأرسلته على وجهه في كل مذهب من مذاهب الهوى ؛ ثم يتفتح لك في صفتِها بكل ما تخيّلَ حِسهُ وأحسَّ خياله

(1) أصابته بالخبل والجنون .

فيفرغها في القالب الذي لم يخلق الله فيه امرأةً قط ، ويصبها لعينيك ممثّلةً من النور السماوي المحض تضيء كلُّ قطرة منه وجهَ مَلك من الملائكة ؛ ثم يجري كلامه فيها شعراً خالداً مطّرداً كنهر الكوثر في رياض الجنة حافَتاه من ذهب ومَجراه على الدُّر والياقوت ، ثم يتفق لك بعدُ أن تراها وتجلس إليها وتطارحها ولستَ من فلكها الذي تعمل فيه جاذبيتها . إذن لرأيته قد غار من أوصافها في بئر من الكذب وتعلّق في الحديث عن جمالها بخيوط من الباطل ونزل من الحقيقة التي كان يذكرها لك منزلة المُفلِس يظلّ متسكعاً فارغاً يتبعُ نفسه هواها ويتمنى الأمانيّ ولا حقيقة . ولرأيته كالعنكبوت تقضي الأيام الطويلة في نصب أشراكها وحبائلها لأجمل ظبية في عينها .... ثم لا تكون ظبيتها إلا ذبابة . وتردُّ عليه سوادَ أمره وبياضه كذباً وزوراً وتتهم ذوقه وتهجّن طبعَه وتتّقي عليه أن يكون قد تخبّطه مَس من الشيطان ؛ وأنت على ذلك مستيقن أنك تكلمه فيها بأصحّ لفظ وأوضح معنى وأصدق نصيحة وانك تُلقي في اذنه براهين المنطق وحجج الفلاسفة وتصحح له خطأه في رائحة الزهرة بالزهرة نفسها .. تقول له : ها هي ذِهِ في ريّاها ونسيمها ، فأين ما زعمتَ لها ؟ على انه هو في كل ذلك لا يراك إلا كالأقطع الذي يُقدّر قياس الباع الطويل ببقايا ذراعيه ، والمُقعد الذي يضبط قياس الخطوة الفسيحة بمد رجليه ؛ والأعمى الذي يُفاضل بين لونين ؛ ويكذّب في رأيه ذا العينين، ويراك مجنوناً فاسد العقل أو سخيفاً فاسد الذوق أو أحمق فاسد الرأي .. وما بك ولا به باسٌ غير انك تنظر مُدبراً وينظر مُقبلاً ، وتهزأ

بتيّار البحر لأن قذميك في الشاطىء ويرهبه هو لأنه مندفع فيه منخلع القلب من فورانه وهديره . وأنت تروي فيا وصفتَ له بلسانك عن عينك عن هذه المرأة ؛ وهو يروي فيا صوّر لك بالسند الطويل : بلسانه عن عينه عن خياله عن آماله عن قلبه عن روحه عن القدَر المحتوم عن هذه الحبيبة . وأنت في نفسك كانما تنظر من الأرض الى النجم فلا تراه بعلم ولا يقين ؛ وهو في نفسه إنما ينظر من فلك النجم الى النجم ذاته فإذا الكوكب ما هو . وإذا فضاءٌ واسع من النار وجوٌ عميق من المغناطيس ومظهرٌ من القدرة العظمى جماله في هيبته وهيبته في قوته وقوته في جماله فهو شيءٌ واحد بعضه من بعض .

* * *

وإذا رحم الله إنساناً من هذا الحب ومن التعلق بالجمال كدّر طينته وأغلظ على نفسه بموادّ ثقيلةٍ من هموم الحيـاة وأكدار العيش ؛ أو أفرَط عليه بآمال النفس وأطماع الحاسة فيشغله بكل ذلك أو بعضه ويحوطه منـه بمثل أكياس الرمل التي يتحصّن وراءها المقاتِلةُ فلا تنفُذُها الطائرات الحمر(1) بل تنطفىء فيها ، ويجعل له من دون العيون الذابلة وألحاظها صدراً مصفّحاً بما يتساقط في داخله من جوانب نفسه وما يتصدّع من أركان قلبه بين الكد والهمّ أو الأمل والطمع أو الجهد والتعب أو الثقل والغلظة أو غيرهـا من هَزاهِز العيش ودواهيه ؛ فتذهبُ سطوةُ الجمال في سطوة المادة ، وتُخضع الإنسان

(1) الرصاص ونحوه .

قوةٌ بإفلاته من قوة أخرى ، ويُهدَمُ من أعلاه لِيُشَد بناؤه من أسفله .

وما من أحد في الأرض يستقيم طبعه على الجمع بين همّ الحب وهم الحياة فإن قام بواحد زاغ من الآخر لا يبالي بـــه إذ هما حقيقتان متدافعتان كتيّاري الكهرباء ، لو أمكن شيء من المستحيل لما أمكن أن يَطّـردا في سلك واحد إطّرادَهما في السلكين . فإن لم تكن محاملُ هذا الجسد [1] خفيفةً على النفس من جهات الفكر والهمّ وإلا انصبغ الذوقُ فالتبست ألوانه وخالط بعضُها بعضاً وضعفت موهبة التمييز بين المعاني المضيئة وصار الإنسان هماً كافياً لنفسه وعادت النفس هماً كافياً لصاحبها فليس بينهما على ذلك موضعٌ لمـــا ليس منهما . وتحولُ مادةُ ذلك الهم بغِلظتها وجفائها بين السر المعشوق في الجمال والسر العاشق في الروح فلا يُدرك منهما شيءٌ شيئاً .

فهذا الجمال إن شئت قدرةٌ لا قوة فيها ، وإن شئت قوةٌ لا قدرة لها ؛ ولو أن الله جعلهُ مجموعاً من القوة والقدرة معـــاً لأبطل سُننَ الطبيعة الإنسانية ولصار لكل انسان كون وحده في القلب الذي يَرِفُّ ليخفق على قلبه ؛ ووطنٌ على حِبالِه في الجسم الذي يحنُّ لينضمّ الى جسمه ؛ ودينٌ على حِـــدةٍ يهبط الوحي فيه نظراتٍ من عينين الى عينين ، وقانونٌ مستقلٌ لا تكون موادهُ إلا قبلاتٍ من شفتين على شفتين . واعلم ان اشقى المخلوقات هم اولئك التعساء الذين يشـذّون في

(1) اغراضه المادية الحيوانية التي تحمله .

تاريخ الناس احياناً وينفردون دونهم بجنون الحب كما حدثوا عن (مجنون ليلى)[1] إذ يتسلط عليهم الجمال بضرب ممتزج من القوة والقدرة يغمر الطاقةَ الإنسانية ، ثم تجيء أقـــدار غريبة بين الرحمة والقسوة فتجذب الحب الى الحبِّ ولكنها تدفع المحبَّ عن الحبيب ، فـلا يزال الجمال يسوقهم سوقاً عنيفاً من ناره الى باب جنته ثم يَرُدهم عن باب الجنة الى النار حتى يصبح الواحد منهم بين العناصر والنواميس المنتظمة في هذا الكون الانساني كانه عنصرٌ مجنون او ناموسٌ مختل .

* * *

إن هذا الإنسان وعاءٌ من الأوعية لا يملأه إلا الأفكار والنّـزعات. ومتى احتلَّ الفكرُ وتمدد ، ثم ضرب فتمكن، ثم غار بجذوره وانشعب بفروعه صبَغَ الأشياء كلهـــا في عيني صاحبه بألوان منه حتى كأنه لا ينبعث في أشعة النظر إلا ليلبس كلَّ ما تنظره العين فلا يرى المرء فيما يرى إلا صوراً من فكره كما تنبعث أخيِـلَـةُ السيما[2] في أنوارها على حائطهـــا فإذا هو تاريخ وحكاية وعمل وخَيالٌ وإذا هو هي على أنه حائط . ولم يخلق الله فيما أعرف غـيرَ الحب فكراً يتمكن من الإنسان ويضربُ الضربات الثقيلة فيستطير في قلبه استطارة الصدْع الشادخ في لوح الزجاج ، يَشُـقُّـهُ على مَدّ ما تتصل إليه حركته ويثلمه على غـير قاعدة من هنا وههنا ويَدَعه فلولاً تتشظّـى[3] وما هذا الحب إلا فكر

(1) هو مجنون بني عامر الشهير واسمه قيس رحمه الله .
(2) خيالات السينماتوغراف .
(3) بقايا تتفتت وتتناثر .

الجمال وأثر عمله في النفس ، إذ كان الجمال الفاتن لا يخلق على ذلك الأسلوب الذي هو عليه الا ليستحوذ على التخيل والحس معاً ؛ فهو نوع من جور الطبيعة على الإنسان يجيء من اتصال أحسن ما ظهر في شخص بأحسن ما تمكن في شخص آخر ؛ وهو كذلك نوع من استثارة هذه الطبيعة لكل ما في أعماق النفس الإنسانية ببعض ما في أعماقها هي . فالعاشق مقتتل [1] بأسلحة طبيعية منها كل نظرة من حبيبه وكل كلمة وكل حركة وكل ما مسه أو اتصل به منه . وذلك لأن قوة طبيعية عجيبة تنفثها رهبة الكون وتحصرها بين نفسه ونفس حبيبته لتجعل منها طريقي سلبها وإيجابها ؛ هذه القوة هي الفكر ؛ هي ذلك الحب ؛ هي الكهرباء المتآلفة من نفسين . ومثل ذلك بعينه في الضرب على قلب الإنسان ما يتملك هذا القلب من هموم الدنيا وشدات مصائبها . كلا الفكرين قتل من الطبيعة غير أنها في أحدهما باسمة وفي الآخر عابسة . تقتل الإنسان بما يحب كما تقتله بما يكره وهما طريقتان لا تسلك غيرهما إذا أرادت أن تنفذ بقدر من الأقدار الماحقة الى باطن النفس لتترك هذا الإنسان المعذب يحس بغمز القوى الخفية على فؤاده .

* * *

(1) مقتول .

الرسالة الحادية عشرة

تقول أيها الصديق : «ألا زدني ثم زدني فإن ليلك الحزين قد تفجّر لك بصبح من تلك الشمس ، وان قلمك ليجمع أشعةَ النجوم ويصوّر منهـا ذلك القمر ، وانك لأنت الحبُّ الذي يخرجُ من جنونه العقلُ الكامل . ولئن كانت تلك الحبيبة قد اختلجت نفسها[1] من يدك فما ذلك إلا أنها مَلَكٌ مدّ إليك جناحه وأمكنك منه ثم انفلتَ ليدَع في يدك الريشة السماوية التي تصوّرهُ بها » .

كذلك كانت تقول هي : «أنا لا أخشى غضبك فإن غضبك عليّ لا يكون إلا السحابة المطرّزةَ بخيوط البرق تهبط في ألوانها مُذهّبةً وتجلجل بأجراسها من بعيد لأنها تحمل إليك مَلكَ الوحي الذي لا ينزل عادةً إلا في جوّ من البرق والرعد » .

* * *

ما كثرت أمراضُ التأويل في شيء كثرتَها في تعرُّف حقيقة الجمال ؛ على أن هذه الحقيقة لا تُستخرَج إلا من الدم ؛ فلو فتّشت

---

(1) انتزعت نفسها ؛ كناية عن الهجر .

عنها السماء والأرض فلسفةً لجئتَ فيهــا بملء السماء والأرض كلاماً كذبا .

الجمال في حقيقته التي لا تختلفُ إنما هو معنىً من المعاني الحبيبة يَعلقُ بالنفس فيُحدِث فكراً متمكناً تتطاوع له هــذه النفس العاشقة حتى ينطبع في أعصابهــا فيستولي على الإنسان كله بجزء مِن عقله ، ومن ثَمّ يتقيد المحب بقيد لا فِكاكَ له إذ لا يجد ما ينتزُعه من عقله أو ينتزِع عقله منه إلا أن يموت أو يجنّ ، وهو من ذلك المعنى مُحتبَسٌ في قُفل لو ضَغطَتْ عليه السموات والأرض لما تَسنّى ولا انكسر ، وليس إلا الحبيبة وحدها هي فَتحهُ وإغلاقه .

بهذا يكون الجمالُ على مِقدار ما يُحسن الإنسان أن يفهم منه ، ثم على مقدار ما يُؤثّر من هذا الفهم ، ثم على مقدار مـا يَثْبُتُ من هذا التأثير . وتلك هي درجاته الثلاث :

فجمالٌ تستحسنه ، وآخر تعشقه ، وجمالٌ تُجَنُّ به جنوناً .

والأول تجودُ به الطبيعة في أشياء كثيرة بل هو الأصل في الخلق ولكنا لا نتنبه منه إلا لمــا نجد فيه رَوْحاً على القلب ورِقّةً للنفس وترفيهاً لها ؛ وهذا الجمال خاضع للإنسان ومن ثَمّ فلا سلطان له إلا بعضُ الميل والرغبة في النفس ، ومنه كلُّ مناظر الطبيعة .

والثاني تعلو به الطَبيعةُ عن هذه الطبقة وتُنزِله منزلة أعلاقهــا وذخائرها النفيسة وتتسلط به على بعض النظام الإنساني كما تتسلط بهذا النظــام على بعضه فيحبُّ الإنسان ويسلو ، ويعرِضُ بالحب ثم

يصنعُ بيده دواءَ مرضه ويشرب منه السلوان والعافية ... إذ هو بإزاء الجمال الذي يتسلط من ناحيةٍ ويخضعُ من ناحية تقابلها .

والثالث لا يَجده من يَجده إلا مرة واحدة كما أنه لا يموت إلا مرة واحدة،وهو من خَوارقِ الطبيعة التي كلُّ نظامها أن العقل لا يعرفُ لها نظاماً ؛ وما هو إلا أن يصوِّب الإنسان رأسه فإذا هو عند جنون الحب وإذا هو بجنونه فوق العقل والمعقول .

فالمرأة في عين محبها المفتون أجملُ من مسحتْ يدُ الله على وجهها من النساء فتركت الأثر الإلهيّ يتسلّط في سحر عينيها ، وطبعت المعنى الناريّ يتلهّبُ في شعاع خدّيها ، وأودعت رَوحَ الجنة أمانة بين شفتيها ، ووصلتْ بين الرحمة والنفوس بذلك النور المتلألىء في ثغرها ، وبين النّقمة والقلوب بتلك النار المستعرة من هجرها ، وأضافت الى النواميس النافذة في الكون فتور عينيها وتنهدات صدرها.

ويراها المحبُّ فما يحسب إلا ان قطعةً من السماء قد صارت ثوباً لجسمها ، وأن قدَراً من الأقدار قد نشأ على الأرض وسُمّي باسمها ، وإذا نظر إليها عَلِمَ بدلالة وجهها أنها من القمر ، وإذا نظرَتْ هي إليه أعلمته بدلالة لحظها أنها من القَدَر .

وتُسايِله فيحلُّ سلام الدنيا كلها في قلبه ، وتُغاضبه فيقع في حرب هذه الحياة وتقع الحياة في حَرْبه ، وإذا ضاقت الجميلة به ساعةً واحدة لم يبق له بالعُمر استطاعة ، وإذا كان الهرَمُ بالسنين الطويلة هَرِمَ في هجرها بالدقيقة والساعة .

ويرى لو أن الجمال نفسه خُلق امرأة لكانَها ، ولو جادل أحدٌ في المحاسن لجعلتْها المحاسنُ برهانها ، فهي تُقبل بوجهها الفتان كما تقبل السعادة بالأمل الوسيم ، وتختال بمعانيها النسائية كما تهبُّ روائح الأزهار في النسيم ، رَفَّافة على الحب كأنها خُلقت في جنة الحب رَيحانة ، مسكرةٌ للعاشقين كأن نهر الخمر في الجنة جعل فمها لهذا العاشق حانَة ، صافيةٌ يترقرقُ في حسنها ماءُ دَلالهـا ، وتُشرِقُ بالقمر الأزهر من وجهها سماءُ جمالها ، ولا تشبه إلا نفسها كما لا يشبهها إلا ما تُبدي المرآة من خيالها .

ويَغلو فيفسِّر النظرة منها تفسير الفقيه المتكلم للآية ، ويقفُ عند الابتسامة وقوفَ السابق إذا فاز عند الغاية ، وينظر إليها في ثوبها ولكن كما ينظر القائد الى مجد وطنه في الراية ، ويسمع صمتها كأنه كلامٌ بين نفسه وبينها ، ويعي كلامها فلا تدري أأنطقتْ به فمها أم أنطقت به عينها ، فهي بجملتها ليس فيهـا من الحسن إلا وَحيٌ وتنزيل ، وهو بجملته ليس فيه من الحب إلا تفسيرٌ وتأويل ، ثم هي وحدها القاعدة العامَّة في الجمال وهو وحده البرهان والدليل .

وتراه ينظر إليها ولكنه من سحرِ جمالها كأنه يتوهَّمُـها ، ويعرفها ولكنه من سطوة جلالها كأنه لا يفهمها ، ثم تعلو فما يُشرِقُ حسنُـها عليه إلا كالمعنى الأزليّ من جانب في الغيب ، ثم تَعظُمُ فلا يدرك ما فيهـا من الحقيقة السماوية إلا على طريقة أهل الأرض في إدراك الحقائق العظمى بالإيمان والرّيب .

* * *

تلك هي الحبيبة الجميلة لا تعرف إن كان الجمال في شخصها أو في الجزء المتّصل منك بشخصها ، أو في الذي هو متصل بك من شخصها. فهي جميلة من ناحيتك ومن ناحيتها ومما بينهما ، وهذا هو الذي يجعلها فوق الجمال الإنساني بطبقتين لا تسمو امرأة الى واحدة منهما، ويجعلك ترى ما فيها من الإبهام جمالاً لا تفسيرَ له وما فيها من التفسير جمالاً مُبهماً ؛ فكأنها في كل ذلك دائرةٌ مرسومة من الفكر لا يهديك البحث إلى موضع طرَفيها . وهي محيطةٌ بروحك من ثلاث جهات فلم يبق لك إلا الجهة التي تتصل روحك منها بيد الله . وهذا هو موضع التأليه في الجمال المعشوق ، إذ لا يَدَعُك الحبُّ معه إلا بين شيئين اثنين : الحبيبة والخالق .

ألم تَرَ الى شعراء الدنيا وهم أنبياء الجمال الذين لا تتصل ملائكته بغيرهم ولا يفهمُ غيرُهم ما يفهمون منها ، كيف يشبهون الحسن الرائع بكل ما في الخليقة من مظاهر الروعة، فيتناولون من الآفاق والسحب والبروق والرعود، ومن الشمس والقمر والنجوم والأفلاك ،ومن الخلد والجنة والنار ، ويأخذون من الجبال والبحار والأنهار ومن الرياض والأزهار ثم الطير والوحش ثم المعادن وأفلاذ الأرض ، ومن كل ما ختمت عليه يد الله بروعة أو طبعت عليه برهبة ، ويجمعون ذلك ثم يفيضونه في أوصاف الجميلة وجمالها حتى لكأنها ذلك السرُّ الذي قام به حسن الخليقة وحتى كأن الله لم يخلقها إلا ليكون كلُّ شيء فيها تفسيراً لشيء ما في آيةٍ من آياته . وما ذلك بمبالغة من الشعراء ولكن أرواحهم الجميلة قد أحيط بها من هذا الجمال النسائي فأينما أحسوا رأوا

له صلةً بإحساسهم وضرَب في أفئدتهم عِرق منه فانقدح له شعاع يطير الى الفكر لأنه بعضُ القوة الموجّهة إليه من الروح المفكّر .

إن الجميلات إنما هُنَّ كواكب الأرض يدرن في أفلاك القلوب ؛ ولستَ ترى فلكياً يرصدُ نجوم السماء إلا ولعينيه منظار تكبر فيه الأشياء[1] أضعافاً الى أضعافها فيدنو بالبعيد ويجهر بالخفي . وعاشق الجميلة حين يهيم بها ويرصد منها نجمَ خياله في فلك أمانيّه لا يلبثُ أن يرى الجمال قد جسّم فيه الحسّ وبسط له ضوء الفكر ، فإذا عينه في تكبير نجمة الأرض كذلك المنظار بعينه في تكبير نجمة السماء ، وإذا مِلْءُ العين حبيبُها .

فيا كبدي مما ألاقي من الهوى ....

* * *

---

(1) اصطلحوا على تسميته بالمرقب وهو التلسكوب .

الرسالة الثانية عشرة

وهنا مَغاصُ الدُرَّة في لُجَجِ الحب فالْقِ على نفسك قبل أن تقرأ هذه الرسالة معنى من رقة قلبي حتى تُواثِقني على أنها لا تخرج من نفسي إلا كما أُريد أن تتلقاها فلا أَتبسَّطُ ولا أتسرَّحُ بكلامي هذا إلا في مكان من نفسك .

في موضع من شاطىء النيل نَدِيٌّ [1] فلان اليوناني وهو رجل في رقة المرأة ينهض في خدمة المحبين بفن من الذوق امتزج فيه ما تقتحمه جرعةُ العاشق بما يختلج إليه حياء المعشوق ؛ فترى من رقعةِ نديّه طرازاً أخضر مُفوَّفاً [2] على ثوب الماء وفيه حَبْكٌ بديع على أغصان الشجر يلوح طرائق وحُبَكاً حُبَكاً [3] كهذا الانكماش الذي تراه طرازاً لأثواب الغانيات . وتجد في أطراف النديّ أشجاراً متعانقة كلُّ لَفيفٍ منها يبني بيتاً أخضر ستائره من الأغصان المتدلية وجدرانه من الفروع المعروشة وكأنما زُخرِفَ وَطُلِيَ وفُضِّض وذُهِّب بألوان الظل والماء والسماء وما يتسحَّب فيها .

---

(1) وضعناها للمكان الذي يسمونه (القهوة) وهي أحسن ما يؤدي معناها وليس أثقل من قول بعضهم (مشرب القهوة) .

(2) منقوش .

(3) الحبك جمع حباك والمحبوك الثوب الذي فيه هذا .

وترى الناس يستكفون[1] حول هذه البيوت الخضر ، ولكنك اذا احتجرت في عريش منها وكنت منفرداً أشعرك بكل المعاني أنك وحدك فلا تصلح للجلوس فيه ؛ وتساقطت عليك ظلاله أرواحاً عنيفة تطردك طرداً ونالتك من كل ظل ثَقلةٌ[2] لا تُحتمل كأنما تناجيك أن هذه الأشجار التي تشبه الضلوع ما غُرست إلا لقلب وكبد ... وأن هذا البيت هو بيت الحب لا يتكنن[3] الا عاشقين .
وهدتني قدماي يوماً الى ذلك النديّ بعد أن ضربتُ ساعةً في بياض تلك الأرض وسوادها[4] فملت إليه أريحُ فيه من الإعياء والحر فإذا هو يهبط على نفسي بمعانيه وإذا أنا من الطرب كبعض شجره أميل وأصفر وأتغنى . وأدرت عينيَّ فابصرت في سَرارَةِ المكان[5] شجراتٍ يدعونني فقمت إليهن وما هناك أحد غيري وغير الطير ؛ فإذا غرسٌ قد تسطح وآخرُ قد تفنن[6] وثالثٌ على ساقه كما تقيم الخيمة وتَسدِل عليها حجاباً من هنا وحجاباً من هناك . وإذا رائحةٌ من نفح الحب وبقايا التنهد والتشاكي ما يَكذِبني الحسُّ فيها أبداً، فاستخفتني الأشواق وجعلت قلبي المتلهف ينتفض في علائقه كما ينزو الفارس في السرج والجواد يُخِبُّ به ويعدو .

* * *

(1) يستديرون .
(2) كثقلة الطعام حين يثقل على المعدة .
(3) يحتوي .
(4) عامرها وغامرها .
(5) وسطه وسرته
(6) تفرع . والمتسطح الممتد على الأرض .

ثم تكوّر النهــــار على الليل والليلُ على النهار [1] حتى أتت ساعة موعد لها بعد أن تقدمتها حاشية عريضة من المواعيد المكذوبة والمعاذير الملفقة والكلام الذي لا تحلّ معانيه في ألفاظه ابـداً ... لأنه لغةُ شفتيها .

وكنا نمشي وقد انتفخ النهار [2] وبدأت الهاجرة ترتجل « معانيها الذهبية » في مدح الظل والماء والنسيم ، وقَلِقَ بنا ظهرُ الطريق لأمر ما فقالت وأبصرت الندي : نجوز الى تلك الواحة . وتحفّى بها المكان حين جاءته كأن أرواح الأشجار تعرفها ، فهب النسيم الراكد يجري ، وجعلت الأشجارُ يصفق بعضها لبعض حتى خُيّـل إليّ أن هذه ملكة الطبيعة دخلت الى قصرها .

ومشيتُ الى تلك العريشة بعينها فلما احتوتنا قلت هـــذا مجلس السلام. [3] في هذا البيت . قالت : وما باعث هذه الكلمة ؟ قلت : ان كل شيء فيك ليتكلم من غير أن يضطرب به صوت ولقد يكون من بعض خواطري وخواطرك ما أسمع منه في قلبي صوتاً كصلصلة الدرع حين يقع عليها السيف،وانك لا تدرين كيف أفهمك ؟ قالت:فكيف ؟ قلت: اني أفهمك سعادة أخشى منها وأخافها فإن السعادة ان لم تتحقق لا تضر إلا في الحب فشرُّ أنواع السعادة فيه تلك التي لا تتحقق.قالت فإذن أنت تخافني ؟ قلت:ولكن ذلك ليس معناه أني أخافك بل معناه أني أرجوك.

---

(1) يمحق أحدهما الآخر .

(2) قبل الظهر بساعة فذلك انتفاخ النهار .

(3) هو ما يسمونه قاعة الاستقبال .

قالت : وعلى هذا يكون لقولك اني أرجوك معنى آخر ؟ قلت : بل معانٍ عدّةٌ منها اني .. قالت : وماذا أفهم من أني ؟ قلت : أليس فيهـــا ياء المتكلم ؟ فقالت : وأي شيء في ياء المتكلم ؟ قلت : بربك لا تتعنّتي أليس فيهـا المتكلم نفسه ...؟ فضحكت وقالت : ولكن ما معنى انك ترجوني ؟ قلت: إن النبات لا ينبت إلا حيث يجد عناصر غذائه ، وروحي قد وجدت في جمالك كل عناصر الحب فنبتت فيهـا نبتةٌ جديدة أخاف أن لا تتعهديها فتذوي؛ومن هذا الخوف أرجوك..

وقلبي يخشى منكِ على ما فيه منكِ فان لكل شخص ظلاًّ ولكن هواك نقل ظلك الى قلبي كما تنقله آلة التصوير ؛ فإن غضبتِ وتحولتِ مزّق ظلك هذا القلب ليغضب ويتحول ومن خوفي هذا أرجوكِ ..

وكل شيء في عالَم الموت يموت ويُنسى ، فإذا أنتِ نسيتِني فهذا موتي عندك ، وكل من يحب الحيـــاة يخاف الموت ، فمن هذا الخوف أرجوكِ ..

وكلماتي هذه تخاف أن تحمليها مَحْمِلَ الجُرءة عليك فهي كذلك من الخوف ترجوك ..

قالت : أفليس في الحب إلا الخوف ؟ قلت : فيه الرجـاء ولكنه هو الخوف بعينه . وللعرب خرافة جميلة في سُلَحفاة يسمونها « بنتَ طَبَق » فيزعمون أنها تبيض تسعاً وتسعين بيضة كلها سلاحف وكلهـا بناتُها وكلها من جنسهـــا ؛ ثم تبيض بيضة واحدة تَنْقُفُ عن حيّة تأكل التسعة والتسعين كلها...قالت : آه . قلت : وآه.. فلو كان لي في

حبك تسعة وتسعون رجاءً،أي مائة إلا واحداً،ثم خوفٌ واحدٌ لحاها كلها . فاسترسلت في إطراقة جميلة ثم قالت : لقد جئتُ معي بالنسخة الانجليزية من ديوان « عمَر الخيَّام » ، إن هذا الشاعر ـ ونظرت الي باسمة ـ حبيبٌ الى قلبي وهو مني كالسعادة إن لم أطمع في نيلها لم أياس من قربها ولا من الفكر فيها . كل قصيدة من قصائده تنشيء فيَّ حباً جديداً ففي قلبي له أنواع كثيرة من الحب لا أدري ما هي ولا ما الفرق بين نوع منها ونوع منها ولكن كلّها حبٌ كلها حبٌ . وهو نجم بعيد عني غير اني أراه ساطعاً وأعلم أن في قلبي دماً يحنُّ إليه وفي هذا الدم ينغمس شعاعه الآتي من السماء ؛ هو حيث يكون وحيث يكن فهو في قلبي .

قلت: وإذن فلا ينبغي (للخيّام) أن يسلّط الخوف على رجائه..؟ فتلألأ ثغرها ضحكاً وقالت : « الخيام » إنما هو هذا الكتاب في هذا الجلد المذهب . قلت : فأنا أستنزل روحه إلينا فإن فيَّ هذهالقوة فلا بد له من أن يجيء .

ثم أطرقتُ وجعلت ألمح ابتسامها حين أدَوِّمُ عينيَّ[1] يَمنةً ويسرةً ثم انتبهتُ ورميتها بنظرة ارتاعت لها روعاً ظاهراً وقلت : إن روح الخيام تُجيشُ فيَّ منذ الساعة وهو يسالك هل تحبينه ؟ قالت : بلى ؛ ولكن على سائلنا أن نساله فماذا يرى هو فيَّ ؟ قلت : ان كل ما احتساه من الخمر فكان لذّته في الدنيا يراه الآن قد خُلق جسماً جميلاً

(1) أديرهما وأقلبها .

رائع الجمال ، فهو يسكر منه ولكن سكر أهل الجنة في الجنة . قالت : أفلم ينس الخمر بعد ؟ قال « الخيام » ... وهل الكتاب الذي في يدك إلا أسطر من شعاع الكؤوس . قالت : والحبيبة التي يذكرها فيه ؟. فقال الخيام لو كانت مثلك لما ساغ لي أن أذكر معها الكأس ، ولكني كنت أستجمع بها مناظر الجمال فإن الطبيعة تتزين لعين الشاعر اذا رأت معه امرأة جميلة كأنها تغار . قالت : إذن كان يريد الطبيعة لا الحبيبة . قال الخيام : بل أردتُ أن يكون موضعُ تأملي جميلاً بالجمال وحبيباً بالحب وتوخّيت أن تكون فيه كل عناصر الهوى . ان المسجد لا يُبنى في أي الأمكنة بل يُختار له المكان الذي فيه عنصر الصلاح والمنفعة ، والمسجدُ نبات مغروس في تربة خاصة تجمع عناصرَ الصلاة والتسبيح والتهليل ، والخيام نبات مغروس كذلك ولكن في الورود والرياحين والألحاظ وشعاع الخمر .

قالت : وهل يتقبّل الخيام مني إذا سألته أبياتاً جديدة ؟ قال الخيام ـ لقد جئتِ بي إلى الأرض فإن لم تسوّغني طباعَ أهل الأرض في الحب والهوى والحنين لا أستطيع شيئاً وإن كان في وسعي أن أجعل كل شجرة في هذا المكان تُنشد قصيدة خضراء بلُغتها لا بلغتك.

قالت : بل أريد لغتنا فإني لا أفهم منطق الشجر .

قال الخيام ـ فهاتي الديوان ، ثم جعل يُزَمْزِمُ زمزمةَ العجم[1] وقلب غلاف الديوان وكتب :

---

(1) صوت همهمتهم وهم يزمزمون عند الشعر وغيره .

صُبَّ كاساً على الــثرى فتراه
عـاد قلبـاً يطيرُ فيـه احتراقُ
يَتلوَّى بهـا ويهـتزُّ منهـا
إنـــه كانَ أكبُداً تشتـــاقُ
وَيحَ من أسكرتْ إذا تُسكِرُ الكا
سُ ويا ويحهم إذا مـا أفاقوا
تَنسجُ النور والشعاع خيوطـاً
كلُّ خيط للهمِّ منـه وثاق
وتُريني السماءَ في سَعَةِ الصـد
رِ وصدْري بشمسها[1] آفاقُ
أحتَسيها كالفجر يُعقِبُ ليلاً
أو كليلٍ للفجر فيـه انبثـاق
هاتِهـا فهي في فمي قُبلاتٌ
واصطدام الكؤوس منها عِناقُ

وقرأت الأبيات وأنا أترجرجُ كان في الكرسيّ زلزلةً أو كان فيَّ روحاً يضطرب ويتقلقل ، فما انتهيت الى « القبلات والعناق » حتى انقلب الكرسي بي فاصطدمتُ بها ولم أقع ولكن .. آه ولكن وقع فمي على خدها .

وَجعلَنَا (الخيام) كاسين في يديه فقرع كاساً بكاس ليسمع منها في صوت القُبلة رنَّةً مُسكِرة ...

(1) تشبه الخمر بالشمس .

الرسالة الثالثة عشرة

تلك ساعة لا تَطلُع عليّ ذكراها إلا طلوعَ الفجر في نور وألوان ونسيم وندى ؛ فاذا أطرقت فيهـا وتمثلتها رأيت ذلك الفجر يمتد ويضطرم وإذا الشمس قد بزغت منه تطوح بشعاعهـا من بعيد تحية للأرض وأهلها ؛ ثم أمعن فيها فترتفع وينساح[1] ضوؤهـا وإذا بتلك الفـاتنة قد طلعت لي من الشمس ؛ واذا نحن على تلك الطريق ، واذا المكانُ والزمانُ والسحر والجمال ؛ وإذا نور وجهها قد نبع فيه الضوء الأحمر من لون الحياء ؛ واذا هي واقفة وعلى خدها القبلة الأولى .

لمست روحي روحهـا ؛ ذلك هو معنى القبلة . ولكنها وقفت ذابلة يُعرَفُ فيها الحزن ، وكان في صدرها التنهد وكان في لحظهـا معناه ؛ أما لون التنهد فبقي على خدها .

يا لله ما كانت إلا تمثالاً يريني منها صورة الاطمئنان الخائف ، وما كنتُ بإزائها إلا تمثـالاً آخر يريها مني صورة البراءة المتّـهمة . وكنت أقول لها منذ هنيهة إن الحب هو الخوف ؛ فعلمت أن من الخوف أشياء

(1) ينبسط شعاعها .

لا شيئاً واحداً كلها من نكد الحب : الخوف نفسه ثم رجاء ذهـــابه ثم خشية قدومه ثم خوفٌ ليس فيك ولكنه في النفس التي تحبهـــا ؛ والإنسان حين يرجو الأقدار يشعر بهـا بعيدة عنه ولكنه حين يخافهـا يراها قد خالطته وكأنما تعتلج في جنبيه وتَعْـرُكُـهُ بكل أثقالهـــا . ليس ما يُخيفنا هو ما نخشاه في الحقيقة . إنما هو قوة خفية في الغيب تعتري القلب فتتناول منفذ الحياة منه فترسل فيه ما ترسل من الآلام الحكيمة كما ترى اللافظة من أنثى الطير حين تزُقُّ فرخها وعنقه المرن الغضُّ ينتفض في منقارها، وهو يكاد يختنق من طريقة إطعامه الحياة، وكذلك نتناول من السماء حكمةَ الألم .

* * *

ولمـــا تصرَّمت تلك الوهلة[1] التي اعترتها مزَّقتُ بشفتي ذلك الصمت الذي كان يغرز أنفـاسي في قلبي كأن في كل نَفَس إبرةً نافذة وأردت الكلام فجعلتُ أجمجمُ في عذري[2] وأرسل ما يحضُـرني من نفس الشفتين المتهمتين بالذنب ... وهي غـافلة أو متغافلة لا تأذن لكلامي أن يمر بها . ثم نظرت فإذا في أجفانهـا دمعة تترقرق وتهم أن تنحدر . وكأنما لم أكن عرفت ظرفها ومزاحها وميلها الى النادرة وأنه لا يسري الهمَّ شيءٌ عندها كالكلمة الشاعرة وأن الجبل من جبال غيظها وغضبهـا تنسفه جملة مُفَـرْقِعة من الضحك، وأسعدني طبعي الجريء

(1) انكشفت الحيرة .

(2) أعتذر من غير تصريح .

الذي أنكرته من يومئذ فلمع لعينيّ معنى جميل في دمعتها فأمسكتُ يدها وقلت : ان عذري إليك في اضطراب الكرسي بي وما تعمدتُ نيّةً وهــــذه يدي لكِ بأن حكمك فيّ نافذ اذا لم تنشر الصحف اليوم أو غداً :

«حدثت زلزلة خفيفة لم تُلحق ضرراً بأحد .... »

فتداَفعَتْ تتبسّم وغَمَر وجهها معنًى رقيقٌ كالنور الذي يسطع من خلال سحابة كانت مجتمعةً ثم تسايرت تجرُّ سوادها . واستتبعتُ فقلت : ذلك عهدي وأنا مَرتَهَنٌ بكلامي ماخوذ باقوالي فهــذا توقيعي عليها وأسرعت فقبلتُ يدها الجميلة . وحلّتْ هذه الُجرعةُ عقدة صمتها فقالت : والعذر ذنبٌ آخر ؟ قلت : فإذا كان ذنباً فإن منه عذراً ثانياً ..... ولكنها أسرعت فاختلجت يدها وما تماسك ضُحكاً .

* * *

القبلةُ الأولى هي تلك النظرات الطويلة الحائرة في أعين المحبين وقد ضاقت بالصمت والإبهام وكثرةِ ما تتردد بين معنًى يسأل ومعنى يجيب، فانحدرت الى الشفاه لتتخلَّقَ حركةً وتتمثل صوتاً وتَستَعلنَ للحب بكل معانيها. فالعواطف المشبوبة والنظرات المتكلمة والابتسامات المترجمة تأخذ كلها في تاليف تاريخ الحب زمناً يقصُر أو يطول . ومتى بدأت في تدوين هذا التاريخ كانت الكلمةُ الأولى هي القبلة الأولى .

واللغات تعجز أحياناً بما نُحَملها فلا تُحسِنُ التعبير إذا كانت العاطفة قوية مُهتاجة وقد نشبت فيّ عاطفة أخرى مثلها . فإذا ضاقت

الروح بهذا العِيّ عَمدَت الى لغتها الأولى فارسلت العاطفة لوناً في الوجه إذا كانت حياءً أو خوفاً ، ورِعدَةً في الجسم إذا كانت فزعاً أو محْقاً ، ودمعاً في العين إن كانت حزناً أو قهراً ، وضحكاً وابتساماً إن كانت إعجاباً وطرباً . فإذا كانت العاطفة وجــداً ولوعةً وقد استفاضت بين روحين ، دنَتْ إحداهما من الاخرى فمسّتها بشفتيها فيكون هذا اللمسُ بأداة النطق هو أبلغُ النطق .

إنما تحية الفكر ردُّ كلمة بكلمة ، وتحية النفس هزُّ يد بيد ، وتحية القلب لمسُ شَفَـةٍ بشفة .

* * *

الرسالة الرابعة عشرة

كم أسأل الدرَّ عن معناكِ باسمةً
والوردَ عن لفظة قد أطبقتْ فاكِ
لا الدرُّ يدري ولا في الورد لي خبرٌ
أرويه عن شفتيكِ أو ثناياك
يا نجمةً أنا في أفلاكيها قمرٌ
من جذْبها ليَ قد أضللتُ أفلاكي
النارُ بالنار لا تُطفَأ اذا اتصلتْ
فكيف أصنعُ في قلبي لينساكِ ؟

آه أيها العزيز إن صدري لينشقُّ لهذه الأبيات وان لها لَغمْزاً على فؤادي لا يسكن وإني لأرتَمِضُ بها كأن في كل بيت منها نوعاً من أنواع الحُمَّى . هي ألحاظها أولَ اللقاء بيني وبينها ساعةَ كانت تنزع ألفاظها من قلبي فالتوي عليه لأنتزعه من ألفاظها ، وكنت ساهياً عن القدَر وعين القدَر ذاكية عليَّ في تلك الساعة ولا أدري .

لقيتها وما أريد الهوى ولا تعمَّدهُ قلبي ولا أحسب أن فيها أموراً

ستؤول مآلها [1]، وكنت أظن أن المستحيل قسمان: ما يستحيل وقوعه فلا تفضي إليه وما يمكن وقوعه فتهمله فلا يفضي إليك. ولكن حين توجد المعجزة تبطل الحيلة ومتى استطردك [2] القدر الذي لا مفر منه أقبل بك على ما كنت منه تفر.

إن لهذا العقل جمحات ترده أحياناً الى طبيعته الأولى من الطفولة التي غشيتها الأيام والليالي والأفكار والحواس فيرجع الرجل طفلاً صغيراً لا يدري كيف يميز، ولقد يكون وما يشبه رأيه رأي ولا يتعلق بصوابه صواب وأن عقله لكالنجم من أي أقطاره اقتحمته عيناك رأيته ناراً وشعاعاً. غير أنه متى بلغ تلك السورة فجمح عقله أسرعت منه الفيأة [3] الى حالته الأولى فانتبهت الطفولة فيه فعاد كالطفل. فإذا فجاه الحب في عين امرأة رأيته لا يبالي إلا ما عرف في عهده الأول من تحنّي المرأة عليه وانعطافها له، ورجع الى «عصره النسائي» فترى الدنيا بما وسعت لا تعدل في عينه الصدر الجميل الذي يترامى عليه، وتموت المطامع فيه وترجع كلها الى محصول واحد من ذلك الفم الذي يحبه، وتعود لغة الحياة عنده كلغتها الأولى في إشارة أو كلمة أو ابتسامة أو قبلة.

ان الطفولة تكبر فينا ولا ندري، ودع الناس يسمون حماقة

(1) أي تلتج نتائجها.

(2) ساقك أمامه.

(3) الفيأة الرجوع.

الإنسان بما شاؤا فهي هي انتباه الطفولة فيه ومحاجزتها في ساعة من الساعات التي يجمح فيها العقل بين ذات نفسه وبين صفات نفسه .

* * *

لا يريد الهمُّ منك أكثر من أن تريده فيأتي ؛ وحتى لو زويت جلدة وجهك[1] حكايةً وتمثيلاً لطلع مما بين عينيك فهو مقيم في أعصاب كل إنسان ؛ لا يبرح الإنسان يؤدي إليه شيئاً ويحمل منه شيئاً يؤديه ، بل هو نصف مكروبات الدم الإنساني ... ولذلك قالوا : إن القلب المبتهج يقتل من المكروبات أكثر مما يقتل أقوى المطهرات. وهمُّ الحب همٌّ على حدة لأنه لا يكون فيك بل يتصل بك من أعصاب أخرى ودم آخر . وما أحسب أن ألحاظ المرأة الجميلة يكون فيها ذلك الفتور وذلك التكسُّر إلا بما تحمل من الأشعة المسمومة ؛ تلك الأشعة التي متى وقعت في الدم الذي يقبلها ويتأثر لها طبعت في كل ذرة منه صورة من صور تلك المرأة .

هذا همُّ الحب ولكن مجيئه همٌّ آخر لأنه يتهكَّمُ بالناس فلا يأتيهم بكُنْهِه وحقيقته إلا في أسلوب الحظ والسعادة ثم لا يأتي إلا اتفاقاً ومصادفةً في ساعة ترتجف كأنها وقعتْ الى هذا الزمن خطأ ، أو كأنها تحسُّ بما فيها من الجَوْر والقتل ، أو كأنها خُلقت مرتجفة متزلزلة ليتأتى لها أن تزحزح الطبيعة الإنسانية وتطيشَ بها حتى في جبابرة العقول الذين رسخت طباعهم بجبال من الأخلاق الراسية تمنعها أن تميد

(1) قبضتها كما يفعل العابس .

أو تتزحزح . السرور والحب كلاهما يأتي اتفاقاً ، ولعلك لا تجد في كل ما عرّفوا به السعادة أصح ولا أوفى من أن تقول إن السعادة هي نفس هذا الاتفاق حين يتفق السرور أو الحب .

* * *

والجناح الكبير إنما خُلق كبيراً ليأكل الأجنحة الصغيرة . ولما لقيتُها كانت ألحاظها تقول لي بفصاحة أوضح من نور الصبح : أنت فَريستي ، وكانت ترفرف عليّ فأتنسّمُ منها هواءً يذهِلني كما تذهَل العصافير الصغيرة للجارح المنقضّ عليها. وتحولتُ أسرعَ مما أرادت بي وكنت ذا عزيمة قوية مضيئة كالنهار الذي يتغذى من دم الشمس فما أسرعَ ما فتح هذا القمرُ باب سمائه وطلع عليّ من سحره بمثل ما يطلع قمرُ الأرض على الأرض فيُبدِلها من نهارها ذلك الصبح الرّطْبَ المريض الذي تتخايلُ فيه الظّلال والنسمات حتى يأذَنَ الله فتُمحَى آية الليل الأسود وتُطوى آية القمر الأبيض .

كنتُ كذلك البطل الذي أكدى مرةً في قتال خصمه ورجع كما يرجع الجبان فعيّروه فقال والله ما كنتُ جباناً ولكني زاولتُ أمراً مؤجّلاً[1] . وتالله ما كنت ضعيفاً ولكني دافعتُ قَدَراً مُعجّلاً لا يُدفَع .

* * *

(1) أكدى ، أي أخفق ، ويريد البطل انه لا حيلة له في أن يفرغ من عمر لم تفرغ مدته .

وحاولتُ أيها العزيز أن أكتب إليك وأنا في هذا الموت فصنَّفتُ كلماتٍ ثم خشيت أن أرتادَ أحداً لسري فحفظته فيهـــا وتركتها بين أوراقي ، وكان قلبي يحدثني أنه يَستَـرْوِحُ من هذه الصحيفة رائحة صفحات كثيرة ساكتبها ، وقلتُ إنه حب أبيض لا ينبغي إلا أن يكون منسيًّا أو سراً مُضمَـراً أو على الأقل شيئاً غـــير ظاهر . أما الآن فإني مرسل إليك ما كتبت ، ولتجدنَّ هذه الأسطر وما فيهـا إلا قلبٌ يتمزق ونفسٌ مضعضَـعة وكانما هي من بكاء أعصابي المتالمة . وإذا رأيتَ بلداً سال بها السَّيْـلُ أو مدينةً جاش بهـا البحر فاعلم ان لهما ثالثاً في معنى الخراب وهو العاشق الذييغمرُهُ الدمع.وها هيالرسالة:

أكتب إليك وأنا في حال هي من شدة الوضوح قد صارت في شدة الغموض وأية حال تظنها ؟ سيذهب بك الظن الى الموت فهو أخفى ما ظهر من أسرار الإنسانية ، ولكن هناك موتاً لا ينقل من الدنيـا الى الآخرة بل من نصف الدنيـــا الى نصفها الآخر .... وهو في أسرار الإنسانية عكس ذلك لأنه أظهر ما خَفِـي ، وهو الحب .

علامةُ هذا الموت الصغير أن يقع كل شيء منك في غير موقعه حتى لو جاءكاليقين لانقلب شكًّا ولو لمست الحقيقة لاستحالت شُبهة، ثم تجد في أسباب الحياة مـا يجد المريض في أصناف الطعام لأن العلة المستقرة فيه تجعل في كل شيء له علة منهـا . وترى كل ما أنتَ ناظره يوَسْوِسُ في نفسك بلُغَـةٍ ما ولمعنى ما حتى لا يترامى أمرك إلا الى الوساوس والأباطيل كان جماعة من الشياطين ارتجَّتْ في صدرك فلا

يهدأ أبداً . وتحسبُ الأرض قد نَبَتْ بك وثَقُلَت عليهـا كأنها لا تستطيع أن تحملك أنت واعتقادك الجديد ... ومـا اعتقادك هذا إلا انك ترى الناس جميعاً قد تغيروا فلا تصيب بينهم موضعاً تكون نفسك فيه هي نفسك إلا ذلك الموضع الذي يضمّ من تهواها ، أما سائر الأمكنة وأما سائر الناس فانت منهم في رأي نفسك كالمُصْحَف في بيت الزّنديق المُلحِد، يُظْلَمُ في كل شيء : في الوضع وفي الاستعمال وفي الاعتقاد وحتى في النظر إليه ... وتستحيل فيهم بشخصك الواحد إلى اثنين معهما خيالُ شخص ثالث ... فلا ترى إلا أن نصفك يتحزّنُ للنصف الآخر في كل مـا تراه . وهذا النصف الآخر يكون في بَلائه كالطائر الذي وقع من الجو بسهم فلما أحسّ الأرض جعل يَهُمّ ويُدارِكُ الضربَ بجناحيه ويَكِيدُ ويعنُفُ على نفسه ولكنه لا يطير، وكلما أراد أن يثب الى السماء وجد آلتَها فيه مختلّة ترجف وتضطرب ولكنها لا تعلو ، وقصّر جناحه فلَصِق بالأرض وجاءه الموتُ من كل مكان وما هو بميّت .

تُبغِضُ العيش وتبغض الحياة وتبغض الناس،تبغض ثلاث مرات لأنك أحببتَ مرة واحدة ، وهذا كله إذا كانت من تحبهـا لا تدري بهواك أو كانت تدري ولكنها لا تستطيع أو كانت تستطيع ولكن... آه يا عزيزي لا بد في لغة الحب من « لكن » إذا كانت المرأة تعرف لغة الحب .

يا وَيلتـا لقد انتبهتُ إلى أني أخاطبك كأنك أنتَ المبتلَى ...

فلعلك عاذري فإن هذه طبيعة النفس الحزينة؛ تريد أن تكون مصائبها في سواها ولو على ورقة ... لم يبق مني إلا جزء قليل من شخصيتي القديمة أما أكثرها فضاع ضياعَه أو أصبحتُ لا أملكه . ولكن هذا الجزء الباقي يُفسِح لي مذاهب النفس فاراني كأنما أستقبل السموات وأحويها في صدري ، وأرى بعينيَّ مجموعيَّ الإنسانيَّ كلّه واضحاً يتسامى ، وأشعر أني عقل من هذه العقول التي تُشرف على الدنيا وتعمل في نظامها .

ولا أثْـقَـلَ على نفسي من الناس ، فإن ظِلالهم تهبط على قلبي المتألم بأشباح ممسوخة وأراهم على وتيرة واحدة في ثِقـَل الروح وسواد الظل؛ ولا ذنب لهم غير أن وليًّا من أصفياء الله خرج يتوضَّأ يوماً وقد أقبل الناس على وضوئهم فكشَـفَ الله عنه حِجـابَ الحيوانية فنظر فإذا لكل رجل وجه ولكل وجه سَحْـنَـةَ حيوان ولكل حيوان معنًى وإذا شهواتُ أنفسهم قد مسختهم مسخاً وفاءَتْ ظِلالُها على وجوههم بجلود الحمير والبغال والقِرَدَة والخنازير وما دبّ ودَرَج . فاللهمّ غوَاثكَ لأهل النفوس[1]

وهذا الحب حاسة في الروح فهو ولا ريب يستثقل كل ما يُنافِرُهُ من الطبائع ، طبائع هؤلاء الذين يترَفقون للعيش[2] بأيديهم وأرجلهم وأبدانهم وقلوبهم وأنفسهم فيُثيرون في كل سبيل غُبارَ الحيوانية على

---

(1) أي أغث .

(2) يعملون للعيش والكسب .

كل قلب روحاني فلا يكونون عليه إلا ألماً ومَضضاً وشدّةً من الشدة ؛ وكثيراً ما يخيَّل اليَّ فيمن حولي ممن أخالطهم اضطراراً أنهم ثعالب أطلُع عليهم برائحة الأسد الضاري .

إن عواطفي تغلي وتستفِزُّ في مثل المرجل من إرادتي العنيفة المصبوبة من فولاذ الكبرياء ، ولست أخشى في هذا الحب إلا انفجار هذه الإرادة التي هي وعاء النفس ، فإنها إن تنفجر ذهبتْ قِطَعاً مُبعثرةً على كَسْر منها كَسرٌ مني . فهل تنفجر يوماً ؟..

ما أشدّ هذه الأيامَ الحادَّة . إنها كَسُلَّم نُصِبَتْ لي درجاتها من سيوف مسنونة؛ في كل يوم جرح ينفجر بالدم ولكل يوم عذاب وتقطيع في الجرح نفسه ؛ لا راحةَ في الصعود ولا في الوقوف ولا في النزول ، وكلَّ يوم يقول لي حبها : تعلَّقْ بيديك الممزَّعتين على حد هذا السيف وضع قدميك الممزَّقتين على حد ذاك السيف ، واصعد .

* * *

الرسالة الخامسة عشرة

إن كل ما سطرتُ في هذه الرسالة قد انعقد همُّه وسوادُه فكان عَجاجةً ثائرة من حرب الهوى ، ليس تحتها في حَوْمَة القلب إلا ألم كضربة سيف أو طعنة رمح أو كَيَّةٍ برصاصة ملتهبة حمراء . احتَلَتْ نفسي[1] عما كانت فيه من الغيظ والمَوْجِدَة ودافعتُها وغالبتها حتى وقفتُ بها على صِراط النسيان ولكني في ذلك إنما كنتُ كناقِش الشوكة بالشوكة[2] ، يعالج وَخزَةً واحدة بوخزات كثيرة ويكشف عن حُمَة العقربالنباتية بحمة مثلها، وما زلتُ أنكتُ بسنِّ هذا القلم في صميم هذا القلب حتى فاض في صفحات هذا الكتاب .

قَبضةٌ من هذه الأوراق جعلت بيني وبين تلك الحبيبة ما تجعل قبضة من التراب بين الحي والميت . إذ تنثر يدُ الموت من ذراتها عوالمَ أبدية بينك وبين من تحبّ أو من كنت تحب ....

حسوتُ كأسَ الحب فدارت في دمي وانحدرت الى قلبي وصعدت الى رأسي وهذه الرسائل هي الحقيقة التي كانت في خمرها قَطَرَتْ من

---

(1) أي حولتها .

(2) يقولها العامة ناكش الشوكة .

القلم كلاماً ومعـاني . ومنذ اليوم ساضع العقل بيني وبين تلك الكاس فلا أراها إلا جنوناً ملوّناً ومرضاً مُزَخرَفاً ثم لا أراها إلا حلماً خمريـاً زاهياً إن حَسُنَ بالنائم أن يستغرقَ فيه لا يحسن بالمتيقّظ أن يُلمَّ به، ثم لا أعرفها إلا شيئاً يجب اطّراحه إن لم تَدَعْهُ لأنه إثم فلتَدَعْه لأنه ذَمّ .

اضطرمت النار فاكل بعضها بعضاً وهذه الرسائل هي صوتُ الماء الذي صُبّ عليها ليطفئها فزفرتْ به الزفرة الأخيرة ، ومات الهوى لما أصيبت مقاتله .

* * *

تلك مسئلة امتحنتني الحياة بها فما كان أجهلَني إذ ركبتُ فيها الشُّبهة أصرِّفُها بعنان الحيرة فمضتْ تتخبط بي . إن اعجابي المجنون أخرج لي من الحقيقة الصغيرة على الأرض خيالاً في قَدْر السماء يتلألأ في عين الشمس على أجنحة الملائكة . وكذلك الجهل في الإنسان يُخرج له من كل مسئلة سهلة الحل مسئلةً لا تُحل أبداً فلا يبرحُ الفكر يضرب فيها مقبلاً ومدبراً ولا ينفُذ إليها إلا من الجهـات المستحيلة التي لا يخرج الصوابُ لا من واحدة منها ولا منها كلها .

والخطا ههنا من لا شيء وليكن اسمُه بعد ذلك ما يُسمَّى.. سمّه مسئلةً فارغة أو مشكلةً دقيقة أو رذيلةً جميلة أو حبًّا أو امرأةً .. أو ما شئتَ ، هو على كل ذلك خطأ من لا شيء .

* * *

إنَّ مَسَّ استقلال دولة من الدول العظمى قد يكون أحياناً أيسر وأهون من مسّ استقلال نفس من النفوس الكبيرة .

وفي الدم الكريم قانونٌ أزلي يرثه المرء من سلسلة طويلة من أجداد كرام ؛ فإذا انتُهِكَ هذا القانون الإلهي وخاضت في ذلك الدم مهانَةٌ أو مَخزاة ، انتفض أولئك الأموات العظماء فيه واضطربوا كأمواج البحر في البحر ، وتحولت قطراتُ الدمِ العريق الى لمح باصر[1] كأن كل قطرة منه تفور على حدِّ سيف مجرَّد من غِمده ؛ وامتلأت عروقُ الحي أصواتاً داويةً كصلصلة السلاح في المعركة ؛ وترى ذلك الدمَ الكريم يتَرقْرقُ ثم يَتعقَّد ثم يلتفُّ على الجُرثومة التي دَنَّسته فينفجر بها انفجارةَ البركان لا يَدَعُ الصخر صخراً ولا الحديد حديداً ولا التراب تراباً بل يُذيبُها كلها في حميمٍ[2] واحد يجمعُ صورها النافعة المختلفة في صورة بغيضة مُهلكة تدمر كل شيء .

كذلك حُكْمُ قانون الدم ؛ وكذلك حَكَم هذا القانونُ فقضى في دمي ودمها .

أيها الجميل الذي يحسب كلَّ شيء مَوْطِئَ قدميه . إن ذَلَّ لك الحيّ بدموعه لم يذلّ لك الأموات العظماء الذين استودَعوا لآلىء كبريائهم الكريمة في الأصداف من عِظامه تحت الأمواج الجيَّاشة من دمه

---

(1) النظر بتحديق كما يفعل العدو المبغض .
(2) أصله الماء الحار .

الحرّ ، ومن لم تُعِزّه نفسُه فلا يَصلُحُ إلا أن يكونَ رجلاً لا يصلُح ...

والآن سادع صمتي يتمّم كلامي . وانه لصمتٌ قاتمُ الأعماقِ أسودُ النواحي لأنه مملوءٌ بفكرة التوبيخ ؛ مظلمٌ شديد الحَلَك لأن شمس الحب لا تَسطعُ فيه ؛ مُبهمٌ مُستغلِقٌ لأنه صورة الظن السيّىء ؛ مُوحِشٌ مقفِرٌ لأنه رسمُ قلبٍ حزين .

17 فبراير سنة 1942

* * *

خاتمة الكتاب

اجتمعتْ في هذه الرسائل عواطفُ الحب تتساوَق معانيها دون حوادثها على نَسَق الشعر والفكرة لا على سرد التاريخ والرواية ، إذ لم يكن الغرضُ منها حكاية نفسين بل صفةَ نفس صريحة لنفس معقَّدة .... فلما ضمتُ أُلفتَها وهيأتها للطبع أدرتُ الرأي فيما أرضاه منها وما لا أرضاه وما زلتُ بها على ما يختلط فيها من الحب والبغض حتى خرجتْ كما يخرج الماء الصافي من الماء الكدِر وجاءت كما ترى نقيةً بيضاء ليلها كنهارها .

* * *

ان ساعةً من ساعات هذا الضعف الإنساني الذي نسميه (الحب) تُنشيءُ للقلب تاريخاً طويلاً من العذاب إن لم تكن آلامه هي لذّاته بعينها فهي أسبابُ لذاته؛ ومن ثَمَّ يشتبه الأمر على المحبين إذا استفزّتهم فَوْرَةُ الغضب ممن أحبّوا ، فلا تجد في البغضاء عندهم أبغضَ من طريقة إظهارها حتى إن نيران قلوبهم لَتَخْلَقُ منها الشياطين؛ ولقد كان في هـذه الرسائل كلام يدْوِي كهزيز[1] السحابة الحمراء تنطلق

(1) الهزيز : صوت الريح تصفر به .

من الرصاص في معركة حامية لِتُمطِر مطر الموت والألم والوجع ، فلم أثبِتْ منه إلا كما ترى من ضَبابة البخار فوق المِرْجل الذي يغلي ، ومن ألوان البرق تَلمحُ من صواعقها لمحاً .

ألا كمْ في هذا الحب من العجائب المتناقضة حتى إن فضيلة الصبر في العاشق هي نفسها رذيلةُ الغضب فيه ، كلما طال صبره طال غضبه ، وتراه يُبغض بأقوى ما في نفسه فلا يكون ذلك إلا إخفاءً لأضعف ما في قلبه ، وإذا ترامى في أطراف الأرض لينأى عن حبيبه رأيته من أيِّ عِطفَيه التفتَ[1] لا يجد إلا خيال حبيبه ، ومهما تَطرَّحَ قلبه في مطارح السلوان فلن يكون إلا كعقرب الساعة تعمل كل قواها في إبعاده عن « الثانية عشرةَ » ليرجع دائماً بنفس هذه القوى الى الثانية عشرةَ نفسها .

والعاشق هو وحده المخلوق الغريب الذي ترى الأحلام في عينيه وهو يقظان يَعقلُ ويعي . فليست الحبيبة في عينه امرأة كغيرها من الناس ، وإنما تُخرجها له جملةٌ من الصفات الغريبة التي فيها لتقابل جملة أخرى من الصفات الغريبة التي فيه ؛ ومتى كان الأمر غريباً نادراً من طرَفيه في النظر والاعتقاد لم يبق فيه موضع يمكن الحكم عليه بانه من الأشياء المالوفة التي جَرَتْ بها العادة . وتلك هي مُعضلة الحب التي جعلت من بعض النساء الضعيفات هَزْلاً أروع من الجدّ ومن بعض الرجال الأقوياء جِداً أسخف من الهزل ؛ معضلة لا تحل أبداً ما دامت

(1) من أي جانبيه التفت .

بين الحبيب ومحبه إذ لا تجيء ولا تكون ولا تستمرُ إلا كما تجيء وتكون وتستمر ، وإنما مَثلها كذلك الانعكاس الذي لا يستوي له بحال من الأحوال أن يُظهر الكتابة على المرآة إلا مقلوبة أبداً .

* * *

كل معنى إنساني في الحبيب يكون دائمًا وراءه معنى غيرُ انساني في وهم المحب ؛ فالمعشوق مجتمع من إنسانيتين متباينتين وهذا هو كل السر في انفراده عند من يهواه ما دام يهواه .

وأظهرني صديقي على رسمٍ صاحبته التي يصفها في هـذه الرسائل أوصافاً كثغور الحسان لا تَفْترُ إلا عن لؤلؤ ؛ فما رأيتها في الجمــال خارجةً من الجنة ولا سابحة مع الملائكة، إن هي إلا واحدةٌ من خمسين من كل مئة في النساء[1] ولكني أشهدُ أن عينيها كأنها غير إنسانيتين ، لو كانتا في أسدٍ ضارٍ لارتمى عليه العاشق من تلقــاء نفسه ليفترسه . فيها بيِّنةٌ صريحة على أن هذه المرأة الشاذّةَ إن أحبت لم يعرف أحـد غيرها كيف تظهر حبها ؛ فربما آنَسْتَ منهـا النـَّفرةَ أو الإعراضَ أو البغضَ ملالةً فما فوقَها ومع ذلك يكون هـــذا هو حبّـها الذي ابتُلِيَتْ بكتمانه أكثر مما ابتليتْ به .

وإذا كانت القدرة الأزلية تصطفي من نوابـغ العقل والشعور من تكاشِفهم ببعض أسرار التعبير في ملكوت السموات والأرض؛ جاعلةً

(1) الحسون نصف المئة ... وأعتذر الى صديقي .

وسيلتها الى ذلك مَلَكاً أو شيطاناً أو امرأة كاحدهما ... فتلك التي رأيتها امرأة كاحدهما ولكن لا تَدَعُك أسرار عينيها تعرف أيّهما هي ؟ ....

* * *

ليس ببعيد أن تكون هذه القلوبُ الإنسانيةُ ينظر بعضها في بعض أحياناً على شعاع الروح كما يتراءى الوجهُ للوجه في سِراج العين، ومن ثَمّ يكون اختلافُ كل عاشق مع الناس أجمعين في تقدير الجمال الذي يعشقهُ واعتباره إذ لا يُقدّر بعينه ولا بعقله ولكن بقلبه . ولقد حاورت الصديق يوماً في جمال صاحبته تلك فقال إني أرى ما لا ترى فإن قلبي ينظر في قلبها كما تنظر أنت في وجهها ؛ ومتى جادلتَ محباً في هواه صارت الحبيبة في جدالكما كالفلسفة تراها عند أهلها إيضاحاً لشيء معقّد فإذا تناولها غير أهلها انقلبت تعقيداً لشيء واضح ... وإن المرأة الجميلة في رأيي هي تلك التي أرفعُ روحي إليها إذ لستُ أفهمُ من معنى الحب إلا أن الروح اهتدت الى شيء من سرّ الإنسانية في إنسان جميل قد استطاع بجماله أن يهديّها الى هذا السر .

ولما يَئِسَ ما بينه وبينها ولجَّ في غضبه منها سالته رأيه في «إيضاح المعقد ...»[1] فقال أيها الرجل ! إذا مدحتَ امرأة جميلة فلا تقل

---

(١) أي حبيبته التي شبهها بالفلسفة .

ما أجملها بل قل : ما أجمل الشرّ !

* * *

آهِ مِنَ الدُّنيا ومِنْ قَدَرٍ على الدنيا حَكمْ
البغضُ شيءٌ مؤلِمٌ والحبُّ شيءٌ كالألَمْ

* * *

الفهـرس

الصفحة

كتاب المعارف

صدر منه :

- حي بن يقظان .... لِابن طفيل الأندلسي
- الأبطال .... لِتوماس كارليل
- الموتى لا يكذبون .... لِجي دي موباسّان
- من قصص العلماء .... لِفريق من الأدباء
- جسمك كله عجائب .. لِنخبة من الاخصائيين العالميين
- أعيان القرن الرابع عشر .... لِلعلامة احمد تيمور
- أوليفي تويست .... لِتشارلز ديكنز
- ثقافتك الغذائية .... لِنخبة من الأخصائيين العالميين
- العبرات .... لِمصطفى لطفي المنفلوطي
- تداعي الحيوانات على الانسان .... لِاخوان الصفا
- البخلاء .... لِلجاحظ
- أغاني الحياة .... لِأبي القاسم الشابي
- طفلك في سنواته الأولى .... لِلدكتور عبد المجيد رزق الله
- الفن الروائي عند غادة السمان .... لِعبد العزيز شبيل
- البؤساء .... لِفكتور هيجو
- الأم .... لِمكسيم قوركي
- قصة مدينتين .... لِتشارلز ديكنز
- أبو العلاء من التمرد إلى العدمية .... لِعبيد البريكي
- نقد وتأصيل .... لِأبي زيان السعدي
- الترجمة قديما وحديثا .... لِشحاده الخوري

- دمعة وابتسامة .... لجبران خليل جبران
- الأرواح المتمردة .... لجبران خليل جبران
- الأجنحة المتكسرة .... لجبران خليل جبران
- رمل وزبد .... لجبران خليل جبران
- الحضارة العربية بتونس .... د/ احمد الطويلي
- فتاة القيروان .... لجرجي زيدان
- معارك العرب .... لبطرس البستاني
- آنا كرينا .... ليوتولستوي
- ماجدولين .... لمصطفى لطفي المنفلوطي
- حديث القمر .... لمصطفى صادق الرافعي
- السحاب الأحمر .... لمصطفى صادق الرافعي
- رسائل الأحزان .... لمصطفى صادق الرافعي
- كتاب المساكين .... لمصطفى صادق الرافعي
- الشاعر .... لمصطفى لطفي المنفلوطي
- الفضيلة .... لمصطفى لطفي المنفلوطي

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف للطباعة والنشر
بسوسة ـ الجمهورية التونسية

تفخر دار المعارف للطباعة والنشر بتقديم مؤلفات الكاتب الكبير مصطفى صادق الرافعي إلى قرائها الكرام، ضمن سلسلة كتاب المعارف.

صدر منها حتى الآن العناوين التالية :

حديث القمر 1.600

السحاب الأحمر 1.600

رسائل الأحزان 1.600

كتاب المساكين 2.000

« تدمك » : 0 ـ 42 ـ 712 ـ 9973 : ISBN

تم سحب خمسة آلاف نسخة من هذا الكتاب.

الثمن : 1,600 د. ت. أو ما يعادلها بالعملات الأخرى